بسم الله الرحمن الرحيم

بيت الدعوة

تأليف

الشيخ رفاعي سرور

المقدمة

من أهم الحقائق المفترضة في صراعنا مع الجاهلية أنه صراع اجتماعي، قائم بين واقع إسلامي وواقع جاهلي.

وافتراض هذه الحقيقة يحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة الاجتماعية في كل مراحل الصراع، من لحظة الاستضعاف إلى فرصة التمكين ووقت الامتداد.

والدخول بالأسرة المسلمة في مجال الصراع باعتبارها الواقع الاجتماعي للفرد الداعية هو الوسيلة الأساسية لتحقيق الصفة الاجتماعية لواقع الدعوة في هذا الصراع.

وهذه الرسالة تتضمن التصور الحركي الذي تتكون به الأسرة والحسابات الدقيقة التي تدخل بها - بعد تكونيها بهذا التصور - في واقع الدعوة. ومن هنا لم تكن هذه الرسالة دراسة اجتماعية أخلاقية عامة، بل كانت دراسة حركية محددة، تبدأ بتقييم حركي للفوضى الجنسية، باعتبارها نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، وباعتبارها العقبة الأساسية لعودة هذه المجتمعات الجاهلية إلى الإسلام.

والخروج من خلال هذا التقيم بضرورة الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف وضرورة تكوين البيت لتحقيق هذا الارتباط وبحث أثار هذا التكوين في الفكر والحركة، ثم عرض وإمكانية وأسباب حماية البيت بعد تأكيد قيمته في واقع الدعوة، وكذلك حماية الدعاة من البيت لتفادى خطر الرضا بالمسكن دون الجهاد في سبيل الله.

وبذلك تدخل الأسرة في مجال الصراع ويأخذ البيت وضعه في اتجاه الحركة وتدخل معها المشاعر والغرائز في طاقة التحرك وتنضم فيها الزوجة إلى دوافع العمل وتتحول بها الذرية إلى إمكانية امتداد بشرى للدعوة؛ فيتحقق التجرد والتحرر والانطلاق الحركي مع الارتباط الأسرى والالتزام الاجتماعي والاحتياج المعيشي.

كما تنشأ في بيت الدعوة الحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ بمقياس الدعوة في حياة الدعاة، مثل الحد بين زينة الله التي أخرج لعباده والترف المحظور، وبين السكن إلى الزوجة والركون إليها، وبين السعي المشروع للرزق والانشغال المنهي عنه بالمال، وبين الحب الفطري للذرية والافتتان بها.

كما يتحدد في بيت الدعوة الحد بين ممارسة الدعوة كهواية لا تتعدى حدود الميول الشخصية وبين أن تكون الدعوة رسالة لها حياة الدعاة واستشهادهم

وسنرى في الرسالة حياة الكفاح منبعاً للحب بين الزوجين، فالحياة في بيت الدعوة إما لحظة وداع وأمل، أو لحظة حنين وشوق، أو لحظة لقاء وفرحة، فهي حياة طيبة وعيشة راضية وعمر مبارك ووقت مليء. وفي نهاية الرسالة ندعو أنفسنا إلى زيادة بيت من بيوت الدعوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لنعيش هذه الأفكار وتلك المعاني واقعا محققاً وحقائق واقعة.

لتعلم كل صاحبة بيت الدعوة بتلك الزيارة أنها واقفة بالتزامها على خط الدفاع الأول عن الدعوة. وأن موقفها يمثل نقطة الارتكاز في دائرة الامتداد

وأن نسيج ثيابها الشرعي هو نسيج الراية الإسلامية في هذا الصراع.

وهو بيت (الرميصاء) نموذجاً لبيت الدعوة الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا مجتمعاً كاملاً وحياة دائمة.

رفاعي سرور

البداية

نريد في البداية أن نعطى تقييماً حركيا لواقع الفوضى الجنسية، ذلك أن هذا التقييم هو أول ضرورات التغير، لأن مجرد التعريف النظري بتلك الفوضى والدعوة الكلامية في محاربتها لا تكفى للقضاء عليها أو تحقيق أدنى تأثير فيها، طالما أن الدعوة الإسلامية تفتقد الخطط العملي بإمكانياته اللازمة لإنهاء هذا الواقع. وهناك حقيقة تفاجئنا من خلال هذا التقييم وهي أن جاهلية الجنس كانت نقطة تحول المجتمعات من الإسلام إلى الجاهلية، ونجد ذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء)[1].

والفكرة التي في الحديث أن فتنة النساء كانت الفتنة الأولى في مجتمع بنى إسرائيل، ومعنى الفتنة الأولى أنها كانت بداية الانحراف ونقطة التحول؛ ولذلك فإن فتنة النساء تمثل عند إبليس – وهو الأمر بالفحشاء ومنشئ الفوضى وصاحب الجاهلية – الهدف الأول والأساسي الذي يسعى إلى تحقيقه في واقع الناس، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: (فعلت كذا)، فيقول: (ما صنعت شيئاً)، ثم يجيء أحدهم فيقول: (ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته)؛ فيدنيه منه، ويقول: (نعم أنت)[2].

وهذا هو العنصر الأول من عناصر الخطر في الفوضى الجنسية، يتبعه عنصر السرعة في انتشار تلك الفوضى، والذي يتحقق بالإصرار على الانحراف في نفس المنحرف بقوة تتعدى غريزة حب الحياة وكراهية الموت في النفس البشرية.

وهذا موقف يوضح لنا كيف تكون قوة الشهوة والإصرار على الانحراف، وذلك في قصة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر، عندما كانت معه زوجته سارة، وكان في مصر ملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، علم بقدوم سارة فطلبها، فلما جاءت أمامه دعت الله أن ينجيها منه فخسف الله به الأرض، ولكنه بعد ذلك الخسف يحاول مرة أخرى،

[1] أخرجه مسلم في (الرقاق) (17/55) من حديث أبي سعيد الخدري وهو مما انفرد به دون البخاري.

[2] أخرجه مسلم – أيضاً – (صفات المنافقين) (17/157) من حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه.

فيخسف الله به الأرض فيحاول مرة ثالثة[3]، ولعل الإصرار يكون واضحاً من خلا ل المحاولة ثلاث مرات على الرغم من الخسف.

وهذا الموقف وإن لم يتكرر بهذه الصورة، لكنه يوضح عنصر الإصرار على الانحراف بصورة مباشرة وواضحة، وهذه طبيعة الانحراف في أي موقف.

والذي يحقق سرعة انتشار الأنحراف بعد قوة الشهوة هو ضعف الغيرة في نفس المنحرف؛ ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم يربط بين الاستقامة والغيرة ربطاً مباشراً، إذ يأتيه شاب ويقول له: يا رسول الله! أريد أن أزنى، فيقول له: أترضاه لأمك؟ فيقول: لا، فيقول له صلى الله عليه وسلم: (وكذلك الناس لا يرضون لأمهاتهم)[4].

وبضعف الغيرة تكون السلبية في مواجهة الانحراف التي تتحول بالإنسان السلبي إلى موقف المنحرف، ولذلك تحوَّل موقف امرأة العزيز - حينما راودت يوسف عن نفسه - إلى موقف عام للنسوة بمجرد أن أرسلت إليهن وأعلنت رغبتها في يوسف عليهن فعذرنها، فاعتبر يوسف هذا الموقف دعوة منهن جميعاً، {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} (يوسف: 33)، وهذا معناه أن السلبية في مواجهة الانحراف، وبقوة الشهوة وضعف الغيرة تتحقق نهائية معدل انتشار الانحراف الجنسي التي تتم عندما لا يكون في المجتمع أي قيمة أخلاقية، مثلما كان لوط يبحث في قومه عن رجل رشيد فقال: (أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} (هود: 78)، و لم يجد.

ونهائية معدل الانتشار تتحقق بطبيعة المجتمع المنحرف ذاته مع طبيعة الانحراف؛ لأن المجتمع المنحرف لا يقبل - بطبيعته - وجود أي قيمة أخلاقية فيه؛ فيكون الرفض الجاهلي للأخلاق بعدة احتمالات: الأول: فإما أن يخرج المجتمع أصحاب تلك القيمة منه، مثلما حاول قوم لوط عندما قالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} (الأعراف: 82).

الثاني: وإما أن ينحرفوا بأصحاب تلك القيمة مثلما حاول بنو إسرائيل مع العابد، كما جاء في حديث جريج عن أبي هريرة قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وكان في بنو إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلى؟ فقالت: اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج فى

---

[3] أخرجه البخاري في الأنبياء لا (6/388) من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه.
[4] أخرجه أحمد في المسند (256 - 5/257)، والطبراني (8/190) من حديث أبي أمامة وجودة العراقي في الأحياء (7/236)، وقال الهيثمي (1/129): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله الصحيح. وصحح الألباني هذا الإسناد لغير هذا المتن انظر صحيح الترمذي (1922) (2/276).

صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى؛ فأتت راعياً، فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، من طين.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها ببني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله؛ فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه).

قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه، ثم مر بأمة يضربونها، ويقولون: يا سارقة يا زانية، فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه؛ فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت زنيت، وهي لم تفعل)[5].

ولقد وضح من هذا الحديث كيف أن المرأة البغي حاولت إغراء العابد، فلما فشلت لم تستطيع مواجهة القوم بهذا الفشل، فأتت لهم بغلام من رجل آخر، ورفض المرأة المنحرفة للفشل في إغراء أي إنسان تريد الانحراف به هو أخطر ما في طبيعة المرأة عندما تنحرف، ويساوى هذا الخطر في طبيعة المرأة عندما تنحرف رغبتها في أن تقع جميع النساء فيما وقعت فيه، ودليل ذلك قول عثمان بن عفان: (ودت الزانية لو زنى النساء كلهن) (الحسبة لابن تيميه).

الثالث: وإما أن يفسر المجتمع الجاهلي القيمة الأخلاقية تفسيراً ينفى حقيقتها، مثلما فعل بنو إسرائيل مع موسى لما رأوه يغتسل بعيداً عنهم؛ فقالوا: إن به عيباً، ويقول الله عز وجل وذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا} (الأحزاب: 69)، وبذلك نرى المجتمع المنحرف يدفع الإنسان المستقيم إلى الانحراف، أو يدفع به خارج واقعة، أو يفسر استقامته تفسيراً ينفى معناها؛ حتى يكون المجتمع خالصاً لانحرافه، وخطر الانحراف الجنسي بمعدل انتشاره السريع والنهائي يأتى باعتبار أن هذا الانحراف الجنسي هو الخطر الأكبر على الرجال، والرجال هم طاقة الدعوة؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما تركت فتنة أضر على رجال أمتي من نسائها)[6]، وكذلك يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الزنا جريمة الكيان الإنساني كله، فيقول صلى الله عليه وسلم: (العين تزنى وزناها النظر، واليد

[5] البخاري، مسلم.

[6] أخرجه مسلم في (الرقاق) (17/54) من حديث أسامة بن زيد وسعيد بن زيد مرفوعاً.

تزني وزناها اللمس، والقدم تزني وزناها المشي، والنفس تتمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه)[7].

وبمعنى هذا الحديث يتأكد لنا أن الانحراف الجنسي يستهلك ويهدم الشخصية الإنسانية، ومن هنا كان حد الزنا هو الرجم بمعناه المباشر وهو إنهاء وجود هذا الكيان المنحرف، وخطر الجنس باق – أيضاً – باعتبار أنه يتحول إلى طاقة للتحرك بأي قضية باطلة يعتنقها الإنسان المنحرف.

ومن هنا كانت الغريزة الجنسية هي الطاقة الأساسية للحركة الجاهلية.

والمثال الذي يؤكد هذه الحقيقة هو دفع النساء المشركات للرجال المشركين لقتال المسلمين في غزوة أحد بقولهن: إن تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق أو تُدبروا نفارق فراق غير وامق

ولنا أن نعلم كذلك معنى الضرر الذي يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم إذا قمنا بعملية قياس للضغط الجنسي على الإنسان، ولكي نقيس هذا الضغط نختار العهد الإسلامي الأول باعتباره الوضع الاجتماعي القياسي لأي وضع اجتماعي آخر؛ وذلك حتى يكون تقديرنا لهذا الضغط مقياساً لتقديرنا للضغط الواقع على الإنسان في أي وقت وأي مجتمع، فهذا رجل يقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج فتأتى امرأة لتسأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيدفع الرسول صلى الله عليه وسلم وجه الرجل بيده عنها[8].

ورجل آخر يأتي إلى صلاة الصبح فيقابل امرأة في الطريق فيقبّلها[9]، فالأول كان في الحج والثاني كان آتياً إلى صلاة الصبح، وهذا أبو هريرة يعيش رفيقاً للرسول صلى الله عليه وسلم على ملء بطنه، فيشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاناته من الغريزة ويطلب منه أن يجيز له الإختصاء[10]، وتقول الصحابة لو أذن له لفعلنا[11]، ولن يعيش أحد مثلما كان يعيش أبو هريرة والصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم من ذلك كانت المعاناة.

[7] البخاري في (الإستئذان)، (11/26)، مسلم (16/205) من حديث ابن عباس.
[8] أخرجه البخاري في (الإستئذان)! (11/8) في مواضع من صحيحه ومسلم (9/97) من حديث ابن عباس، والذي كان ينظر غلي وجه المرأة هو: الفضل بن العباس.
[9] أخرجه البخاري في التفسير (8/355) من حديث ابن مسعود.
[10] حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في النكاح (9/117) من حديث أبي سلمة عنه رضي الله عنه.
[11] القائل من الصحابة هو سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وغيرهما انظر البخاري المصدر السابق.

ومن الطبيعي أن يلازم خطر الفوضى الجنسية خطر يوازيه، وهو خطر الحب في الواقع الجاهلي باعتباره حقيقة إنسانية مثل حقيقة الجنس، والتقييم الحركي لحقيقة الحب يتحدد في بحث أثر الحب في علاقة الإنسان بالدعوة، وقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم بالحب كحقيقة واقعة عندما رأى عبداً يجرى وراء جارية وهو يبكى؛ فقال لأبى بكر: (انظر يا أبا بكر، ودعا الجارية، فجاءت فقال لها: أتتزوجيه؟ قالت: يا رسول الله أتأمر أم تشفع؟ قال: بل أشفع، قالت: لا أتزوجه)[12].

وقد كان هذا الحديث تقريراً من النبي صلى الله عليه وسلم لواقع الحب من خلال تعجبه من حال العبد دون إنكار عليه، وطلبه من الجارية أن تتزوجه، وأيضاً من خلال تقريره رفض الجارية للزواج من العبد، ومراعاة مشاعرها على الرغم من رد شفاعة النبي في ذلك. واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة إنما هو اعتراف مجرد من أي مدلول له في الواقع الجاهلي، وهذا التحفظ في غاية الأهمية، إذ إن الحب في الواقع الجاهلي ما هو إلا ظاهرة من ظواهرالإنحراف الجاهلي، وذلك لأن الحب الجاهلي هو إثبات للذات الإنسانية من واقع الفراغ، لأن الحب بأهم معانيه هو إثبات للذات الإنسانية، والجاهلية أبرز صفاتها هي واقع فراغ فكرى ووجداني.

وخطورة إثبات الذات من واقع الفراغ على علاقة الإنسان بالدعوة تأتى باعتبارها استهلاكاً للخصائص الطبيعية في الإنسان، والتي تحقق فيه إمكانيات تحمل تكاليف الرسالة، وهي إمكانيات قائمة في كل إنسان، حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مهيأ بتلك الخصائص لأن يكون صاحب رسالة.

ودلائل هذه الإمكانيات هي:

القدرة على الحياة بقضية الرسالة وتصور الوجود من خلال تلك القضية، والقدرة على مواجهة أي واقع مخالف لهذا التصور.

وعندما يحب الإنسان الجاهلي من الفراغ، فإنه بهذا الحب ينطلق نحو من أحبها بخصائص الرسالة الكامنة فيه لأنه يعيش بلا قضية.

فتتحول تلك التي أحبها إلى قضيته التي يحيا بها، ويتصور الحياة من خلالها ويسعى إلى الإرتباط بها محطماً في سبيل ذلك أي عقبة.

---

[12] أخرجه البخاري في النكاح (9/408) من حديث ابن عباس وهو عند أهل السنن أيضاً.

وآثار الحب في الواقع الجاهلي هي الدليل على هذه الظاهرة، فعندما يمارس الجاهلي حباً فإنه يحب إلى حد العبودية، وعندما يفشل في حبه، فإما أن يصاب بالجنون بعد طغيان إحساسه بمن أحبها على عقله وواقعة، أو يصاب بالإنطواء كصورة من صور الكفر بمبدأ (العلاقة) بعد فشله في علاقته بمن أحبها، أو ينتحر كصورة من صور الرفض لحياته التي كان لا يتصورها إلا من خلال علاقته التي فشلت، وهذه هي الآثار الأساسية للحب في الواقع الجاهلي، وبذلك يكون الخطر الحقيقي على الإنسان عندما يمارس حباً جاهلياً هو عجزه تماما عن أن يكون صاحب رسالة.

واعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة، وتجريد هذا الإعتراف من أي مدلول له في الواقع الجاهلي يقتضي أن نناقش حالة خطيرة في حياة الدعاة، وهي دخول الإنسان في واقع الدعوة وهو يحمل في قلبه حباً قد بدأه في الجاهلية، و لم يتمكن من التخلص منه بعد دخوله واقع الدعوة.

وهذه الحالة لها ثلاث نتائج مؤكدة:

- إما أن تكون هذه المشاعر أساساً للدعوة من الطرف المسلم في علاقة إلى الطرف الأخر للالتزام.

- وإما أن تكون هذه المشاعر فتنة للطرف المسلم في العلاقة عن دعوته ودينه.

- وأما أن تنتهي هذه العلاقة وهي النتيجة الثالثة.

وهذا يعنى أن التفكير في إنهاء العلاقة إنما يكون بعد محاولة تحقيق النتيجة الأولى وهي (الدعوة)، وحذراً من الوقوع في النتيجة الثانية وهي (الفتنة).

ونتفق ابتداءاً على أن الإيمان الصحيح يحمى صاحبه من الفتنة، ولكن يجب أن نتفق كذلك على أن الأمر يتطلب معالجة وجدانية مباشرة، ذلك أن الإيمان الصحيح يحقق غلبة الإلتزام من حيث السلوك، ولكن المشاعر تظل باقية، والدليل على ذلك هو حادثة مرثد الغنوى.

روى الترمذي: (قال كان رجل يقال له مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى المدينة، وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلى عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة، قال:

فقلت يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الأذخر ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعييني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله! أنكح عناقاً؟. مرتين، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت: {الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (النور: 3)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا مرثد! الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها)[13].

وواضح من الحادثة كيف أن مرثداً أراد الزواج من المرأة على الرغم من كفرها، وبغائها ومحاولتها جمع الناس لقتله، وكيف ألح في طلبه الزواج منها، وفي هذا دليل على أنه كان متعلقاً بها وجدانياً، ولولا ذلك لما كان هذا موقفه.

ومن هنا تنشأ قيمة المعالجة لمثل هذه الحالة، وأساس المعالجة الوجدانية المباشرة هو مواجهة العناصر التي تنشئ من خلالها مشاعر الحب وهي[14]:

- الانبهار بشخصية المحبوب، باعتبار أن الانبهار ينشئ الحب، والحب يضفي على المحبوب أبعاد الكمال الإنساني، ومن هنا صار أمراً معتاداً أن يتخيل المحب في محبوبة صفات الجمال والذكاء والكرم والقوة... الخ. ومواجهة هذا العنصر هي إظهار العيوب والنقائص وتثبيتها في الذهن. يقول ابن القيم في هذا العنصر: (فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعوه إلى النفرة منه، فإنه إن طلبها وتأملها وجدها أضعاف محاسنه التي تدعوه إلى حبه).

- الرجاء في قيام العلاقة، فإذا حدث الرجاء بدأت المشاعر، وتقوى هذه المشاعر كلما قوى الرجاء.

ومواجهة هذا العنصر هي تيئيس النفس من إمكانية استمرار تلك العلاقة باعتبار الإلتزام الشرعي.

[13] أخرجه النسائي في (النكاح) ن وأبو داود (6/48)، والترمذي رقم (3177) جميعاً من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ومسنده حسن.
[14] يمكن الاستفادة في هذا الشان، بكتاب الطب النبوي للإمام ابن القيم في علاج العشق.

- الأسرار باعتبارها وعاء المشاعر، فعندما ينشأ سربين اثنين ينشأ اختصاص كل طرف للأخر بسر، ومع هذا الاختصاص تنشأ المشاعر. ومواجهة هذا العنصر هي كشف الأسرار التي كانت بين الاثنين أمام أطراف أخرى، وبذلك يفقد الاختصاص الذي بينهما.

- افتراض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبوب وهو افتراض طبيعي ناشئ عن الحب.

ومواجهة هذا العنصر هي تذكُّر الأضرار التي ستنشأ عن هذا الارتباط، مثل القلق على العرض والشك في السلوك باعتبار عدم الالتزام، وتذكر عاقبة القلق والشك من خبل في العقل وألم في النفس، وحرمان من الراحة، وافتراض تحقق السعادة في الارتباط بالمحبوب يعني الشعور باستحالة تحقق السعادة مع غيره، ومواجهة ذلك إنما تكون بالارتباط السريع بأخت مسلمة، ويكون من الأولى أن تكون الأخت على قدر من الشخصية والجمال يحقق رجحان كفتها في نظره؛ لأنه بمجرد تفكيره في الارتباط بها سينشئ في نفسه مقارنة بينهما وبين من كان يحبها، ومع هذه الحالة ينشأ واجب الاستعانة بالله لتحقيق النجاة، والقلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهذا هو التحديد الحركي لأثر الحب في علاقة الإنسان - في الواقع الجاهلي - بالدعوة الإسلامية.

وبعد هذا التقييم الحركي للفوضى الجنسية نخرج بحقيقة مهمة وهي: ضرورة ارتباط الحركة الإسلامية بمبدأ العفاف منذ لحظة التكوين وقيام الواقع الحركي للدعوة الإسلامية؛ وذلك - كما فهمنا من التقييم - أن أي واقع اجتماعي تتسلل إليه الفوضى الجنسية لن يكون له بقاء صحيح.

فكان لابد من قيام واقع الدعوة الاجتماعي وهو يحمل في طبيعته وتكوينه أسباب حمايته من الانحراف، وهذا هو معنى قيام الحركة بمبدأ العفاف، وهذا هو الذي يضمن أن يكون نمو المجتمع المسلم بعد ذلك مرتبطاً بهذا المبدأ وهاهي ذي التجربة الإسلامية الأولى تحقق قيام الدعوة بمبدأ العفاف، حيث كان العفاف هو أول ثلاثة أشياء أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الناس، كما قال أبو سفيان: (أمرنا بالصلاة والصدق والعفاف)[15]، وكانت دعوته إلى العفاف هذه دليلاً على صدق النبوة عند هرقل؛ إذ قال لأبي سفيان رداً على قوله هذا: (لو كان كما تقول حقاً فسيملك موضع قدمّي هاتين).

[15] قول أبي سفيان أخرجه البخاري في (بدء الوحي) (1/31) وهو في مسند أحمد (1/262) من حديث ابن عباس.

وكان الأمر بالعفاف في نص البيعة على الإسلام: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا)[16].

وكان أول أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة بعد بناء المسجد هو إقامة حد الزنا على يهوديين بمقتضى حكم التوراة.

وكان أول أوامر النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بعد فتحها هو قوله: (لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)[17]. وهذه حجة الوداع اللقاء الأخير العام بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته يقوم فيهم ويوصي وصاياه التي ستعيش معهم، ويعيشون بها من بعده إلى قيام الساعة، يقول: (ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهم عوان عندكم، ليس تملكون منهم شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون[18]، ولا يؤذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحنوا[19] إليهن في كسوتهن وطعامهن). وواضح من الوصية الأخيرة أن جوهرها هو قيام علاقة طيبة بين رجال الأمة ونسائها؛ بما يضمن بقاء ارتباط هذه الأمة بالتكوين الأسرى الصحيح وتحقيق مبدأ العفاف.

ويتولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين فيقول في أول خطبة له: (يا أيها الناس، قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا – ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[20]، ثم يقول عمر: (لقد مضى رسول الله إلى سبيله فأتموا الحج والعمرة كما

---

[16] متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه البخاري في (1/64) ومسلم (11/222).

[17] البخاري في الحج (3/483) ومسلم في الحج (9/115) أيضاً من حديث أبي هريرة.

[18] أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل انظر شرح النووي من صحيح مسلم (183 - 8/184) وهو عند الترمذي رقم (1163)، وابن ماجه 0185) والنسائي في العشرة (278)، وليس عندهم لفظ (تحنوا إليهن).

[19] ودائماً تأتي صيغة الحض علي إطعام المرأة وكسوتها بالأسلوب الذي يتفق مع طبيعة العلاقة الزوجية مثل قوله صلى الله عليه وسلم (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك). فالأمر ليس مجرد الإطعام ولكنه الحنان والرحمة في الإطعام.

[20] سنده صحيح، أخرجه أحمد في المسند 1/018) وروي مرسلاً من طريق ابن دينار عن ابن عمر عن عمر موقوفاً، انظر الرسالة للشافعي تحقيق الشيخ شاكر رقم 113151 وأخرجه أيضاً الترمذي 2165، والحاكم (1/114) وصححه ووافقه الذهبي.

أمركم الله ورسوله، واحفظوا فروج النساء)[21]، ونقف قليلاً أمام خطبة عمر باعتبار أساسي وهو أن عمر رائد الامتداد في الدعوة الإسلامية[22].

ولهذا فإن عرض التصور عند عمر في مواجهة خطر الجنس يعتبر مقياساً من مقاييس الارتباط بين امتداد الدعوة الإسلامية ومبدأ العفاف، وخطبة عمر الأولى تؤكد قيمة هذا الارتباط من البداية، إذ تقول الكلمة الأولى فيها: (ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما).

فيحذر عمر من الفوضى في العلاقة بين الرجال والنساء، واستغلال الشيطان لتلك الفوضى قبل وصيته بالجماعة، وتحذيره من الفرقة، على الرغم من أن الجماعة هي الأمر الأول الذي يقوم به الإسلام، ولكن عمر كان يعلم ضرورة أن يسبق الوصية بالجماعة وصيته بالعفاف؛ إذ لا جماعة بغير هذا المبدأ.

ولقد كان أعداء الحركة الإسلامية يدركون قيمة ارتباط الدعوة بمبدأ العفاف فكانوا في خط التضاد مع الحركة الإسلامية يحاولون الانحراف بالحركة عن هذا المبدأ، ومن هنا كانت حادثة اليهودي الذي حاول أن يكشف ستر امرأة مسلمة[23]، فكان ذلك سبب جلاء اليهود – يهود بني قينقاع – من المدينة.

ولعل هذا الحادث بالذات هو الذي يكشف لنا خطورة الأمر؛ إذ إن السبب قد يبدو في ظاهره هينا، ولكن اليهود يعلمون ما وراء هذا الحدث، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ما يريده اليهود فيقرر إجلاءهم، وهي نتيجة قد نرى أنها أكبر من السبب، ولكن بالإدراك الحقيقي لقيمة العفاف في واقع الحركة ندرك أن النتيجة تناسب السبب، وأن جلاء اليهود كان ما يجب أن يكون تجاه هذا التصرف اليهودي.

ولكن القيمة الحقيقية في ارتباط الدعوة بالعفاف ليست في مجرد البداية أو مرحلة التكوين؛ إذ لا بد أن يكون هذا الارتباط مستمراً مع مراحل النمو، كما هو واضح في

---

[21] صحيح، أخرجه احمد (1/17) وهو حديث مستقل غير الذي قبله رواه من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد.

[22] بدليل أن رسول الله رأي رؤية فيها أبا بكر يترح من بئر وكان في نزحه ضعف ويغفر الله له، فأخذها عمر فصارت غربا (وهذه الرؤية ترمز إلى الامتداد والفتح الإسلامي الذي تم في إمارة عمر. أخرجه البخاري في التعبير (12/412) عن ابن عمر.

[23] رواه ابن هشام (2/25) عن ابن اسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً. راجع البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (3 – 4/4).

خطبة الوداع من النبي صلى الله عليه وسلم وخطبة الإمارة من عمر، والارتباط المستمر بين الدعوة والعفاف له موضع أساسي، هو البيت مكوناً بتصور الدعوة ومبنياً بمقتضياتها.

ومن هنا تبدأ المهمة الدقيقة الصعبة... تكوين البيت بتصور الدعوة. ولنبدأ المهمة من لحظتها الأولى، وهي ضرورة تحقيق التوافق التام بين واقع الأسرة والدعوة من خلال معالجة مفهوم التجرد، ومن خلال أسلوب ممارسة الدعوة وأسلوب تكوين البيت.

معنى التجرد

ونبدأ في تحقيق التوافق بمعالجة آثار الفهم الخاطئ عند البعض عن معنى (التجرد) الذي يتحدد عندهم في ضرورة العيش للدعوة وحدها دون تفكير في زوجة أو رغبة في ذرية، ولذا كان لابد ابتداءاً من تحديد وتصحيح مفهوم التجرد على أنه امتلاك الشيء، والقدرة على بذله والصبر على فقده

فعندما أبتلى الله أيوب بفقدان أهله وصبر أتاه الله أهله ومثلهم معهم؛ لأن الصبر في البلاء قد تحقق وتحقق معه التجرد، ولا يضر بعد ذلك أن يكون لأيوب أهل وحتى مثلهم معهم.

وإبراهيم عندما أمره الله بذبح ابنه إسماعيل استجاب لأمر ربه، {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات 103 - 105)، وبدون أن يذبح إبراهيم ابنه حقق التجرد باستعداده للتضحية، وهذا هو المقصود، ولم يكن المقصود ذبح الأبن بدليل أنه بدون الذبح قال الله له: {قد صدقت الرءيا}، وعلى هذا فإن معنى التجرد هو أن يكون للإنسان زوجة وذرية، لكنه يستطيع التضحية بالحياة معهم إذا اقتضت ضرورة الدعوة ذلك، ولقد قال الله تعالى في المرسلين: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} (الرعد: 38).

وهذا موسى عليه السلام يتزوج في أخطر مراحل الدعوة بعد أن فرمن مصر خائفاً يترقب.

ولقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تحقيقاً دائماً للانسجام والتوافق بين دعوته وبيته، وهذه هي حقيقة التجرد الواقعية، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (حبب إلى من دنياكم ثلاث: المسك والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة)[24].

فقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين قرة العين في الصلاة، ومعناها قمة القرب من الله وبين حب الزوجة. بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يبين أن أفضل مكان لصلاة المرأة هو مخدعها، فيقول: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها،

[24] أخرجه أحمد (3/28) والنسائي7/061) وفي العشرة له (ص34) والحاكم (2/160) وأبو يعلي (6/199) والطبراني الصغير (1/262) القطعة الأخيرة، وغيرهم وسنده صحيح - دون زيادة كلمة (ثلاث) - راجع الفتاوى الحديثية للهيثمي (ص277) ولفظة (ثلاث) مفسرة للمعني كما لا يخفي.

وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها)، كما حقق الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الربط عملياً عندما كان يصلى على فراش عائشة، وهذا معناه أن المكان الذي يكون فيه الإنسان مع زوجته من الممكن أن يكون هو بذاته مكان قرب الإنسان من الله دون تعارض، ولكن صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم في فراش عائشة لا تؤثر في رغبة النبي الشديدة في التعبد.

وهاهي ذي عائشة تصف ذلك عندما سألها ابن عمر: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت، وقالت: (كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربى، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلى، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض)[25].

وكذلك يربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين مشاعر العبودية لله ومشاعر الأبوة والرحمة بالذرية في وقت واحد، فكان يسجد، فإذا ارتفع الحسين فوق ظهره ظل ساجداً حتى يترل، وكان يصلى وهو يحمل ابنته زينب[26] على يده، وبذلك تمتزج مشاعر العبودية لله مع مشاعر الرحمة والأبوة، كما كان صلى الله عليه وسلم يوازى بين تعلم الرماية للحرب باعتبارها أهم أعمال الجهاد، وبين اللهو مع الأهل في كونهما من الحق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رميه عن قوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق)[27].

---

[25] رواه ابن حبان.

[26] أخرجه مسلم 6/031) والبخاري في (سترة المصلي) من حديث أبي قتادة.

[27] صحيح الترمذي (1637) والنسائي (6/222) وأبو داود (7/189) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الزواج والدعوة

وكما كان الانحراف الجنسي بداية حقيقة لتحول الأمة إلى الفساد، كان الاستمرار على هذا الانحراف سبباً مباشراً لهلاكها نهائياً.

ولعل هذا هو المعنى المأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير). إذ إن الملاحظة الواضحة في الحديث هي تعليق الفتنة التي تعم الأرض والفساد الكبير بعدم صحة التزاوج في الأمة، وهو الأمر الذي يتحتم معه الانحراف الذي تكون به الفتنة والفساد الكبير.

وتعليق الفتنة والفساد الكبير بعدم صحة، الزواج الواردة في الحديث محددة بمرحلة الاختبار.

ومرحلة الاختبار هي المرحلة التي تجتمع فيها كل المقاييس والتصورات والتقاليد والقيم الاجتماعية؛ لأنه بهذه الأشياء كلها يتم الاختبار، مما يجعل الخلل في الاختبار دليلاً مباشراً على الخلل في كل هذه الأبعاد.

هذا الخلل الذي لا تستقيم معه أمة ولا تقوم لها قائمة.

وبعد الاختيار الصحيح في البداية يبقى الزواج صحيحاً حتى النهاية بالتجرد من الحياة الدنيا والنجاة من ضغط النساء على الرجال في هذا الجانب.

وهناك سياقات قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية منها ما جاء في سورة الحجر، حيث ناقشت في أول السورة قضية إهلاك الكافرين: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ، مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} (الحجر: 4 - 5).

ثم تناقش السورة مهلك قوم لوط، وهم علامة الشذوذ ومثل الانحراف بصورة مفصلة. لتناقش السورة بعد ذلك ضمانات بقاء هذه الأمة السابقة إلى قيام الساعة فكان هذا الفضل متمثلاً في سورة الفاتحة التي لم يترل مثلها في التوراة والإنجيل والقرآن، {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (الحجر: 87).

وكانت الضمانة الموازية للفاتحة هي تجرد الرسول صلى الله عليه وسلم من النظرإلى الحياة الدنيا، {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} (الحجر: 88).

أما في سورة طه فيجمع الله بين هلاك الأمم الكافرة والنهى عن مد العين إلى متاع الحياة الدنيا وتقرير أن العاقبة للتقوى في سياق واحد: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} (طه: 128)، {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (طه: 131).

ويتحقق الزواج الصحيح تتحقق أكبر فاعلية لانتشار الأمة الصحيحة وبقائها. والدليل الأول على هذه الفاعلية هو قول الله عز وجل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} (الرعد: 38).

ومن هذه الآية نشأ أخص الأبعاد القدرية لقضية الزواج، ذلك أن الآية تثبت لجميع المرسلين صفة التزاوج.

ومن هذه الصفة نشأت أمة الأنبياء، كما قال سبحانه في آل عمران: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران: 33 - 34).

وبأمة الأنبياء تحققت أقدار الله في البشرية كلها ذلك أن قدر كل أمة مرتبط بقدر نبيها.

إذ جاء بعد هذه الآية مباشرة: {يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَاب} (الرعد: 39) فأصبحت حقيقة تزواج المرسلين - التي كانت بها الذرية التي نشأت بها أمة الأنبياء - هي الحقيقة الثابتة في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب التي يتحدد بها أقدار الأمم.

ولعل أخطر الأمثلة على ارتباط أقدار الأمم بالزواج بصورة تفصلية، هو أن تنشأ أكبر أمتين ارتباطاً بتلك القضية... أمة بنى إسرائيل، وأمة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذلك عند بناء البيت الحرام الذي تحدد مكانه لإبراهيم، وأسكن فيه إبراهيم زوجته هاجر، وحيث ذهب بها إبراهيم إلى المكان عندما طلبت منه سارة هذا بعد غيرتها من هاجر التي رُزقت بإسماعيل. يقول الله عز وجل: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} (البقرة: 129).

وهكذا بدأ قدر أمة الرسول صلى الله عليه وسلم: (بالاستجابة لغيرة سارة من هاجر زوجة إبراهيم الخليل)، ثم الاستجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل بأن يبعث في أهل هذا المكان رسولاً منهم، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم).

وأيضاً نجد أن زواج موسى وعلاقته بالدعوة يتضح جلياً من الخطوات التي حددها الآية التي وصفت حال موسى ابتداءاً من هروبه من مصر وهو خائف يترقب، ووروداً لماء مدين ليقف موقفاً المروءة والنخوة والعفة والأمانة، فهو يدفع الظلم عندما يجد امرأتين لا تستطيعا السقاية بسبب الرجال، ثم يدعو ربه أن يترل عليه من الخير، لتكون الاستجابة هي دعوة الرجل الصالح ليجزيه أجر السقاية، تلك الاستجابة التي يبدو فيها جلياً أهمية العفة والأمانة وصيانة النظر عن المحرم، فيأمر المرأة أن تسير خلفه، لا أمامه ولا بجواره، ثم تطرح فكرة الزواج، ويقضي موسى أحسن الأجلين المتفق عليهما.

ويأتي الزواج ليكون بداية لمرحلة إعداد موسى للقاء الله عز وجل، مرحلة تحل فيها السكينة محل الخوف والجذع، وفيها يكون الخير بخدمته للرجل الصالح، مرحلة تتجلى فيها أهمية الزواج وارتباطه بالدعوة ارتباطاً متجانساً.

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (القصص: 21 - 30).

فإذا به يدخل الوادي المقدس طوى؛ ليكون كلام الله معه، فيوحي إليه، ويبعثه إلى بني إسرائيل؛ لتنشأ أكبر أمة بعد أمة النبي عليه الصلاة والسلام وتكون الأولى من خلال

رغبة سارة في رحيل هاجر بعد غيرتها. وتكون الثانية من خلال زواج موسى من ابنة الرجل الصالح بعد الخوف والترقب.

وإذا كان المتفق عليه قدراً عظمة الاستجابة. فإن نشأة هاتين الأمتين تؤكد عظمة شأن وشرف العلاقة الزوجية ومقتضياتها عند الله عز وجل. باعتبار أن هذا الانتشاء كان من خلال هذه العلاقة.

من أجل ذلك نجد اختصاصاً قرآنيا بين النبوة والرسالة والدعوة وبين قضايا الزواج وأحكامه، وذلك من خلال النداء بقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا} (45 - 46 الأحزاب).

حيث لم يرد هذا النداء في القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في قضايا الزواج وأحكامه، ومنه ما يتعلق بأحكام زواج النبي نفسه صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} (الأحزاب: 28).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (الأحزاب: 50).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (التحريم: 1 - 4).

ومنه ما يتعلق بأحكام زواج المؤمنين مثل قوله تعالى في أول سورة الطلاق: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ

لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} (الطلاق: 1 – 7).

ومنه ما يتعلق بأحكام نساء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مثل قوله في سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (الأحزاب: 59).

أما بقية الآيات التي ورد فيها النداء ولم تتعلق بالزواج فقد جاءت هادفة لحماية الأمة من الجانب العسكري الذي يوازي قضية الزواج الهادفة لحماية الأمة من الجانب الاجتماعي، حيث جاءت في أمر الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، وعدم طاعتهم، وذلك في مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التوبة: 73). ونفس ألفاظ هذه الآية في سورة التحريم.

أما في سورة الأحزاب ففيها قول الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (الأحزاب: 1).

وتعلق هذا النداء في هذه الآيات بجهاد الكفار والمنافقين وعدم طاعتهم. جاء مقترناً بنفس قضية النساء والزواج والأعراض؛ لأن التحلل الخلقي هو في حقيقته حركة نفاق.

والدليل المباشر على ذلك هو ما ورد في سورة الأحزاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (الأحزاب: 59).

ثم جاء بعدها: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} (الأحزاب: 60 – 61).

وكما أن الانحراف الناشئ عن الخطأ في عملية التزاوج سبب في دمار الأمم من البداية، فإن إقامة العلاقة الزوجية الصحيحة بكل عناصرها هي أساس إقامة الأمم، وامتدادها الصحيح.

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه...)، الوارد في هذا المعنى ليس هو النص الشرعي الوحيد المؤكد لهذا المعنى، بل إن هناك نصوصاً قرآنية تتضمن هذا المعنى بصورة أساسية وهو ما ورد في سورة البقرة التي ناقشت في سياق واحد أحكام الزواج والطلاق، ثم يتبعها بقصة طالوت ذات المضمون المنهجي المحقق لقدر النصر والغلبة على الكافرين. وكذلك سورة النساء التي تناقش في بدايتها كل أحكام النساء ثم يتبعها قضية النصرة والنصير.

وسورة المجادلة التي تبدأ بمناقشة حكم الظهار لتنتهي بتقرير: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة: 21 – 22).

وفي سورة الفرقان التي تربط بين الإمامة في الدين وقرة العين بالأزواج والذرية... كما في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (الفرقان: 74).

وبذلك أصبح الزواج من سنن المرسلين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أربع من سنن المرسلين: النكاح والسواك والتعطر والحناء)[28].

[28] روُي في الجامع بالنون والياء، وسمعت أبا الحجاج الحافظ يقول الصواب (الختان)، وسقطت النون من الحاشية، وكذلك رواه المحاملي عن شيخ أبي عيسي الترمذي.

التوافق بين البيت والدعوة
أسلوب ممارسة الدعوة

وبعد معالجة مفهوم التجرد نبدأ في المعالجة الواقعية استمراراً في تحقيق التوافق بين ضرورة الدعوة وتكاليفها وبين الطبيعة الأسرية في الإنسان بأسلوب الدعوة ذاته، وهذا هو أحد المواقف في واقع الدعوة نرى فيه رجلاً صحابياً اسمه حاطب بن أبي باتعة يبعث بخطاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيأتي إليهم بجيش، ويعلل هذا بأن كل الصحابة لهم ما يحمى أزواجهم وأولادهم في مكة، فأراد أن تكون له بهذا العمل عند أهل مكة يد يحمي بها زوجته وأهله، ويصدق الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا التعليل ويقول: (صدق)، ويأمر الصحابة ألا تقول له إلا خيراً[29].

ولما تغيب عثمان عن بدر كانت تحته بنت رسول الله وكانت مريضة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إن لك أجر رجل وسهمه)[30]، وعندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يغزو كان يترك على المدينة من يحمي النساء، وكان يترك عليهن أقوى من عنده من الرجال منهم علي بن أبي طالب.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوازى بين ثواب الذي يجهز الغازي وثواب الذي يحمي أهله وبين ثواب الغزو، فيقول: (من جهز غازياً فقد غزا ومن خلفه في أهله فقد غزا)[31]، ومن هنا يتبين أن هدف حماية الزوجة والأهل ليس بالأمر الذي يتغاضى عنه أصحاب الدعوة عملياً في تحقيق أهدافها، ولما كان التجمع الإسلامي تجمعاً مجاهداً كان مبدأ كفالة أهل المجاهد مبدأ اجتماعياً، وصيغة هذا المبدأ هي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلاً فعلي)[32].

ولابد أن تكون كفالة الجماعة المسلمة لأسرة المجاهد كفالة اجتماعية كاملة، وليست مجرد معونة مادية محدودة، وقد توجب تلك الكفالة الزواج من زوجة الشهيد،

[29] أخرجه البخاري في المناقب (7/304) ومسلم (16/54) من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

[30] البخاري في المغازي (7/54) والمسند (2/120) من حديث ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

[31] متفق عليه ن أخرجه البخاري (6/49) في الجهاد، مسلم (13/40) من حديث زيد بن خالد.

[32] أحمد في المسند (2/464) من حديث أبي هريرة، وفي مواضع من مسنده وأبو داود (105 - 8/106) من حديث المقدام بن معدي كرب والنسائي (278 - 1/279) وسنده صحيح.

وزواج الزوجة بعد زوجها إذا مات، أو زواج بعد زوجته إذا ماتت لا ينقض معنى الوفاء والحب الذي كان بينهما.

وهذه أم سلمة كانت تحب أبا سلمة إلى درجة لم تكن تظن فيها أن هناك رجلا يماثله، إذ إنه لما مات قال لها رسول الله: (قولي إنا لله وإنا إليه راجعون، فما من عبد تصيبه مصيبة، ويقول هذه الكلمة إلا أبدله الله خيراً منها)، فقالت: ومن أين سيأتيني خير من أبي سلمة؟ فقدر الله أن تتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وتصبح أماً للمؤمنين.

وكفالة الجماعة المسلمة لأسرة الفرد المجاهد ليست مجرد معالجة نفسية تحقق طمأنينة المجاهد على أسرته، ولكنها بمعناها الحركي هي توجيه طاقة الفرد الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو أسرته إلى طاقته الكامنة في إحساسه بمسئوليته نحو دعوته، وبذلك يتحرك الفرد الذي يشعر بالأمان على أسرته بطاقته الكاملة، ويسعى بتلك الطاقة صادقاً إلى الشهادة.

وعندما ينشأ واجب الزواج من زوجة الشهيد فإنه يندب لهذا الواجب أخ متزوج، باعتبار أن الأخ البكر يفضل له الزواج من بكر مثله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأل جابراً عن زواجه: (أتزوجتها بكراً أم ثيباً؟ قال: بل ثيباً. قال: أما تزوجتها بكراً تداعبها وتداعبك)[33]، وندب الأخ المتزوج للزواج من زوجة الشهيد يعني مواجهة الثقل الجاهلي الرافض لمبدأ التعدد.

ومن هنا يصبح هذا الزواج انتصاراً اجتماعياً على الرواسب الجاهلية، والتعدد من حيث الأصل الشرعي من الأمور المباحة التي يساوى فيها الفعل والترك، أما باعتباره ضرورة لمعالجة آثار الجهاد الإسلامي في الواقع الاجتماعي للدعوة فإنه يصير أمراً مندوباً، وعلة خلف الشهداء في زوجاتهم التي نشأ عنها الندب الشرعي للتعدد ينفي وجود أي علة متعلقة بالزوجة الأولى لتعدد زوجها عليها، وبذلك يكون من السهل عليها قبول الأمر والرضا به؛ لتثبت بهذا القول أن زواجها على الأساس الإسلامي لم يكن من مدخل (الأخذ)، وتحقيق المصلحة، بل كان من مدخل (العطاء)، وتحقيق الالتزام، وواقع التعدد لا يتنافى مع مفهوم الحب كأساس للعلاقة الزوجية، فإذا كان الحب بين الزوجين هو أن تكون الزوجة أحب الناس إلى الزوج دون غيرها، فإنه عند التعدد يصير من الواجب على الزوج إقناع كل زوجة من زوجاته بأنها أحب الزوجات إليه.

[33] متفق عليه من حديث جابر رواه البخاري في النكاح (9/121) ومسلم في النكاح أيضاً.

ولا يمكن القول بأن علة خلف الشهداء في زوجاتهم كمبرر للتعدد يعالج الأمر تماماً عند الزوجة الأولى، ولكنه يخفف من وطأة الأمر عليها، والجدير بالذكر أن الغيرة بين النساء في واقع الدعوة يخففها الشعور بتميزهن العام عن النساء اللاتي لم يدخلن هذا الواقع، وتثبيت صفة الداعية على المرأة يقلل من صفة الأنثى فيها، وهي الصفة التي تنبع منها مشاعر الغيرة؛ لأن المرأة – كصاحبة دعوة – تكون ذات اهتمامات عالية؛ فيقل في كيان المرأة مشاعر الغيرة باعتبار أنها مشاعر لا تتفق مع علو الاهتمامات، وأيضاً فإن الشعور بالخطر الذي يحيط الدعوة يسهم في تحقيق هذا الأمر، وكذلك فمن الممكن توجيه مشاعر الغيرة إلى عامل تنشيط للمرأة في واقع الدعوة لتحقيق أهدافها، بحيث يصير مقدار هذا التحقيق هو مقدار ما تتميز به عن غيرها من النساء[34]، وفي النهاية يجب أن تلجأ الزوجة إلى الله سبحانه أن يخفف عليها الأمر ويرضيها به، والله على كل شيء قدير.

وللدعاء في معالجة هذا الأمر أثر محقق – إن شاء الله – بدليل ما كان في زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم سلمة.

فعن أم سلمة قالت: (لما انقضت عدتها بعث إليها أبو بكر يخطبها عليه، فلم تتزوجه، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب يخطبها عليه، فقالت: أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني امرأة غيري – أي أن غيرتها شديدة – فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال صلى الله عليه وسلم: ارجع إليها، فقل: أما قولك: (أني امرأة غيري) فسأدعو الله فيذهب غيرتك، وأما قولك: (أني امرأة مصيبة)، فستكفين صبيانك، وأما قولك: (ليس أحد من أوليائي شاهداً)، فليس أحد من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك، فقالت لابنها عمر: قم فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه[35]، وفي هذا الحديث دليل على إمكانية ذهاب الغيرة بالدعاء، ومما لاشك فيه أن فكرة الزوجة الأخرى وما يتعلق بها أمر له خطورته النفسية، ولكن تقديم النموذج الطيب للعلاقة الكريمة بين الزوجات أمر له أثره في معالجة هذه الخطورة.

وهذه عائشة تتحدث عن زينب رضي الله عنها فتقول: (وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أرقط خيراً في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله تعالى ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها

[34] ولذلك كان يريد الرسول صلى الله عليه وسلم التميز بين نسائه بصالح العمل فيقول (ستتبعني منكن أطولكن يداً... يقصد الرسول ستلحق بي في الآخرة أكثركن كرماً ولكن نساء الرسول فمنهن أن المقصود هو الطول الفعلي فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها وتقارنه بذراع الأخريات مما اضحك النبي صلى الله عليه وسلم). راجع شرحه من صحيح مسلم شرح النووي (16/8).
[35] أخرجه النسائي في (النكاح) (81 - 82 /6).

الفينة)[36]، وتقول عائشة أيضاً وكان النبي صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش – زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمري: (يا زينب ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ووالله ما علمت إلا خيراً).

قالت عائشة: (وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع).

وهذا حوار بين الاثنين:

قالت زينب: (يا عائشة ما قلت حين ركبتيها – أي الناقة في حادثة الإفك – قالت: قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالت زينب: قلت كلمة المؤمنين).

وكم كان جميلاً من عمر بن الخطاب[37] رضي الله عنه أن يستبدل لفظ (جارة) بلفظ (ضرة)، فيقول لابنته حفصة: (لا يغرّنك إن كانت جارتك أوسم منك) يعني عائشة.

وليس الزواج من زوجة الشهيد هو الصورة الوحيدة لأداء واجب الجماعة تجاه أهل الشهيد، بل قد يكون لهذا الشهيد أبناء تتعارض مصلحتهم مع فكرة زواج الأم، وعندئذ يكون صبر الأم عن الزواج لتربية هؤلاء الأبناء هو الأمر الواجب، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا وامرأة سعفاء في الجنة[38] كهاتين: امرأة آمط من زوجها فحبست على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا).

وعندما يكون للزوجة أيتام فإن خطر عزوبتها ينعدم، باعتبار أن غريزة الأمومة أقوى من غريزة الجنس، ولولا ذلك ما كان هذا الحث من رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصبر على زوجها حتى تربي أيتامها. وعندما يكون الواجب هو صبر الأم عن الزواج لتربية الأبناء فإن هناك واجباً جديداً ينشأ على الجماعة تجاه تلك الأم، وهو إنشاء

[36] الحديث رواه مسلم فضائل الصحابة 13 (15/206) شرح النووي. قال النووي: (... والسورة: الثوران وعجلة الغضب وأما (الحدة) فهي شدة الخلق وثورانه، ومعني الكلام أنها كاملة الأوصاف إلا أن فيها شدة خلق وسرعة غضب تسرع منها. الفينة – بفتح الفاء وبالهمز – وهي الرجوع أي: إذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعاً ولا تصر عليه).

[37] متفق عليه: البخاري (8/57) ومسلم في الطلاق (1479) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنه.

[38] رواه أحمد في مسنده (6/29) من طريق شداد أبي عمار عن عوف بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: في الحديث.

الوضع الاجتماعي الكريم لها، ليس فقط من الناحية المادية، ولكن من ناحية أهم وهي (الكرامة الاجتماعية)، ذلك لأن كرامة المرأة الاجتماعية مرهونة بزوجها[39].

وعندما تختار زوجة الشهيد أن تعيش بغير زوج من أجل أبنائها يصير أداء واجب تكريمها حقاً لها على الجماعة، وأماناً لها من الانحراف؛ لأن محافظة المرأة على عرضها إنما يكون بمقدار كرامتها بين الناس، لعل هذا مدلول قول (هند) للرسول عند بيعة النساء: (أو تزني الحرة؟!)[40]، لعل هذا أيضاً هو علة جعل حد الزنا على الجواري نصف حد الحرائر. وإذا كان خلف الشهداء في أهليهم هو واجب الجماعة فإن واجب المجاهد أن يؤمن أنه وأهله في ولاية الله، وأنهم أمام قضاء الله وقدره سواء؛ ولهذا يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن حماية الرجل والأهل مرجعها إلى الله فيقول: (اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[41]، ومع إيمان الزوج بأنه هو وزوجته أمام قدر الله سواء، وهذا ياسر وزوجته سمية يستشهدان معاً، والموعد هو الجنة.

---

[39] ولذلك نري أن زيد الذي كان زوجاً لزينب ويرغب في طلاقها يقول فيها بعد زواجها من رسول الله: فما أن رأيتها بعد زواجها من رسول الله حتى أكبرتها في نفسي.

[40] أخرجه ابن جرير في تفسيره (28/51) سورة الممتحنة.

[41] أخرجه مسلم في (الحج) رقم (1342) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أسس تكوين البيت

وبعد المعالجة بأسلوب الدعوة نأتي إلى المعالجة بأسلوب تكوين البيت استمراراً في تحقيق التوافق بين واقع الأسرة والدعوة؛ إذ إن وقت تكوين البيت له خطر كبير على نفس الإنسان صاحب الدعوة، حيث ينشأ الاحتياج المادي ويتعمق الشعور بالشح، ويقوى الاندفاع إلى تحقيق الرغبة في تكوين البيت، وهذا أمر طبيعي في النفس البشرية، يؤكده الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه: (كان نبي فيمن كان قبلكم أراد أن يغزو فقال: لا يتبعنا ثلاثة: رجل له عشار وينتظر أن تلد له، ورجل بنى بيتاً و لم يكمله، ورجل عقد على امرأة و لم يبن بها)[42].

ولهذا وجب الاهتمام بالنفس البشرية في وقت تكوين البيت حتى لا يكون هذا التكوين نقطة تحول سيئة في حياة المسلم.

[42] متفق عليه: البخاري في فرض الخمس (6/220)، ومسلم في (الجهاد) (1747) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القواعد الأساسية لأسلوب تكوين البيت

الربط بين مراحل التكوين وطبيعة البذل تفادياً لأثر الشح، ويتحقق هذا بتنفيذ الوليمة عند البداية وسنة العقيقة بعد الولادة والكرم بصفة دائمة؛ لأن الإنفاق عندما يخشى الإنسان الفقر ويأمل الغنى – هو الذي يحمى الإنسان من البخل ويحقق البر، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير الصدقة وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى).

وكذلك الربط بين مراحل التكوين والآخرة، حيث تكون التهنئة الإسلامية على الزواج (نسأل الله أن يرزقك الشهادة)، ثم تأتي المعاشرة الزوجية لترتبط بتقوى الله: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ} (البقرة: 223). وكذلك السعي من أجل الرزق يرتبط بالإحساس بالآخرة؛ لأن الانفصال بين السعي للرزق وتذكر الآخرة هو الذي ينشئ الانشغال؛ ولهذا يقول الله سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} (الملك: 15).

فتذكر الآية بالنشور لله مع الأمر بالسعي للرزق، وفي كل ما يملكه الإنسان في حياته، وحتى أيسر الأشياء يجب قيام هذا الربط من خلالها، فدعاء ركوب الدابة فيه: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)[43].

ودعاء لبس الثوب الجديد فيه: (البس جديداً وعش سعيداً ومت شهيداً حميداً)، غير أن الأمر الخطير حقيقة والذي يسبق في خطورته كل العوامل السابقة ليتحقق التوافق بين واقع الأسرة والدعوة، هو (اختيار الزوجة أو الزوج).

[43] هو جزء من الحديث قبل السابق الذي أخرجه مسلم في صحيحه رقم (1342)

الاختيار

والقرآن يحدد ضرورة اختيار الزوجة أو الزوج بمقتضى الدعوة، فيقول الله سبحانه: {وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة: 221).

وواضح من الآية حكمة رفض المشركة أو المشرك؛ في أنهم أصحاب دعوة إلى النار، وأن حياتهم المرتبطة بهذه الدعوة الباطلة لا تتفق مع المؤمن صاحب الدعوة إلى الله {وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ} (البقرة: 221)، والدعوة إلى الله صبغة حياة الداعية، ولابد أن تكون الزوجة والزوج لوناً منسجماً ومتجانساً مع هذه الصبغة.

وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم لنا صفات الزوجة الصالحة بصفة عامة، بقوله: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[44]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة؛ إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)[45]. وفي رواية: (ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته)[46].

وعن ثوبان قال: (لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قال: (فأي مال نتخذه؟ قال عمر: أنا أعلم ذلك لكم، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال يا رسول الله أي

[44] متفق عليه: البخاري في النكاح، باب الاكفاء في الدين ومسلم رقم (14669) في الرضاع من حديث أبي هريرة.

[45] أخرجه مسلم في الرضاع (1467) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، أما الزيادة ففي رواية أخرجها النسائي 2/072) والحاكم (2/161) وهي صحيحة أيضاً.

[46] أخرجه أبو داود (5/81) والحاكم 1/409/0408) من طريق غيلان بن جابع عن جعفر بن إياس عن مجاهد عن ابن عباس وهو منقطع بين غيلان وجعفر، راجع السلسلة الضعيفة رقم (1319) وتفسير ابن كثير (3/390).

المال نتخذ؟ قال: ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم في أمر الآخرة)[47].

ولن تعين الزوجة زوجها على أمر الآخرة إلا إذا أرادتها هي.

وهي صفة محددة مهمة يجب أن تتزود بها زوجة الداعية: أن تكون امرأة لا تريد إلا الآخرة، وهذه الصفة شرط أساسي لمعالجة الطبيعة الإنسانية للمرأة في واقع الدعوة؛ لأن المرأة ستضحي بإحساس الأمان في حياتها والحماية من زوجها، كما أن المرأة ستضحي بالتميز المادي، وهذه كلها أمور تفرضها الدعوة على الزوجين اللذين يعيشان في واقعها، سواء أكانت الدعوة في مرحلة الاستضعاف والجهاد من أجل التمكين، أوفي مرحلة التمكين لكي لا يتحول هذا التمكين إلى إمكانية مادية لتطلعات المرأة ورغباتها.

وهؤلاء هن نسوة النبي صلى الله عليه وسلم يتظاهرن عليه ويطالبن بتغير المعيشة بعد أن جاءت الأموال وتحقق التمكين؛ فأمر الله سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم أن يضع نساءه بين الرضا بالمعيشة التي هن عليها أو الطلاق، فجاء قوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} (الأحزاب: 27 - 29).

فجاء ذكر ميراث الأرض والديار والأموال - وهو السبب الذي جعل النساء يطالبن بتغير المعيشة - قبل التخير بين الدنيا والله ورسوله والدار الآخرة.

فالمرأة بطبيعة الضعف والطموح والرغبات المادية لا يمكن أن تصدق في جهاد إلا إذا تجردت من تلك الصفات وأرادت الآخرة.

وكما أن إرادة الآخرة شرط في زوجة الداعية لتحمل تكاليف الدعوة فهي أيضاً شرط لكي لا يكون لها تأثير سيىء في زوجها؛ إذ إن للمرأة تأثيراً

مباشراً في إحساس زوجها بالدنيا؛ ولهذا يعالج القرآن نظرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا من خلال توجيه زوجاته إلى العبادة، فيكون تصحيح موقف الزوجة

[47] أخرجه أحمد في المسند (5/278) والترمذي في التفسير (491 - 8/492) تحفة الأحوذي، وابن ماجه في النكاح رقم (1856) من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان. وسنده منقطع لأن سالماً لم يسمع من ثوبان، كما قال البخاري والإمام احمد وغيرهما وقال الترمذي: حسن. وحكي عن البخاري أن سالماً لم يسمع من ثوبان. وفي إسناد أحمد وابن ماجه (عبد الله بن عمرو بن مرة) فيه كلام.

تصحيحاً لإحساس الزوج: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} (طه 131 - 132).

وتحقق إرادة الآخرة يعتبر أساساً لمعالجة صفة خطيرة في المرأة وهي (حب التميز)، إذ يجب توجيه هذا الشعور إلى الآخرة تفادياً خطر اتجاهه نحو الدنيا؛ حتى يتفق تجردها للدعوة، وقد عالج القرآن هذا الشعور عند نساء النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} (التحريم: 5).

ففي هذه الآية استفزازاً صريح لهذا الشعور من خلال النص: {خَيْرًا مِّنكُنَّ}، لأن هذا النص أوجد في إحساس نساء النبي وجود نساء أخريات خيراً منهن، وأصبح حبهن للتميز متجهاً نحو تحقيق الصفات التي ذكرها القرآن للنساء البديلات، وبذلك يصبح التميز دافعاً للعمل الصالح.

ولقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع نسائه هذا الأسلوب القرآني فكان يربط التميز بينهن بصالح العمل، فيقول: (ستتبعني منكن أطولكن يداً)[48] يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم ستلحق بي في الآخرة أكثركن كرماً، ولكن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم فهمن أن المقصود هو الطول الفعلي، فأخذت كل واحدة تقيس ذراعها، وتقارنه بذراع الأخريات؛ فأضحك ذلك النبي صلى الله عليه وسلم[49].

واختيار زوجة الداعية يجب أن يكون باعتبارها أنه إدخال امرأة في واقع الدعوة، وليس مجرد إدخال امرأة في حياة شخص، وهذه مسئولية الداعية صاحب الاختيار، وهي مسئولية ليست سهلة؛ فمن أجل هذه المسئولية كان الأمر بامتحان النساء عند دخول واقع الدعوة في المدينة، إذ جئن مهاجرات، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} (الممتحنة: 10)، فالمرأة تحمل في طبيعتها عناصر خطيرة مثل عنصر الضعف الذي قد يكون تفسيرا لهجرتها، حيث تكون الهجرة ودخول الواقع الإسلامي هروبا من واقع شخصي سيئ لها في جاهليتها لم تستطع مواجهته أو تحمله، أو عنصر الكيد الذي قد يجعل هجرتها ودخولها الواقع الإسلامي مجرد وسيلة أو أسلوب لتحقيق مأرب شخصي أو هدف ذاتي لها، وما يقال في الهجرة يقال في الزواج

---

[48] رواه مسلم (16/8) في (الفضائل) وسبق تخريجه.

[49] الحديث رواه البخاري وراجع شرحه من صحيح مسلم شرح النووي (16/8).

لأن كلا الأمرين إدخال للمرأة في واقع الدعوة، ودليل هذه الافتراضات هو تفسير ابن عباس: (كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجنا إلا حبا لله ولرسوله)، وقول مجاهد: (فامتحنوهن) فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان الذي جاء بهن غضب على أزواجهن أو سخط أو غيرة، ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن، قال عكرمة: (يقال لها ما جاء بك إلا حب الله ورسوله؟ وما جاء بك عشق رجل منا ولا فرار من زوجك؟)[50].

وفي اختيار الزوج أو الزوجة شرط معروف باسم (شرط التكافؤ). وفي تحقيق هذا الشرط يجب أن تدخل ظروف الدعوة؛ لأن قبول الأخ المسلم باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد وبذل يعني ترسيخ قيم المجتمع المسلم عندما يقوم ومن هنا يجب أن تنشأ في التجمع الإسلامي الحاسة السليمة التي يأخذ بها كل فرد حقه الاجتماعي بين المسلمين.

ويشترط إلا يتحول تاريخ الدعاة إلى مهور للزواج، فلا يتكلم أحد عن نفسه ولا يذكر جهادا جاهدة ولا محنة أصابته ويصير هذا الحق مرتبطا بتلك الحاسة الاجتماعية العادلة. وفى حادثة زواج بلال دليل على هذه الحاسة وذلك الشرط،إذ قال فيه من قدمه لخطبة إحدى النساء انه مؤذن رسول الله وصاحبه في جهاده... فاسكته بلال قائلا: (إن تقبلوا فالحمد لله، وان ترفضوا فسبحان الله!).

وقبول الأخ باعتبار ما قدمه للدعوة من جهاد لا يجب أن يكون هو السبب الوحيد في هذا القبول، وان كان أساساً له، لأنه – بجانب هذا – يجب أن تكون الزوجة مقتنعة بزوجها اجتماعياً وشخصياً ومادياً، لأنه لو قام اختيار الأخ باعتبار دوره في الدعوة فقط فإن هذا سيترتب عليه أن يكون من ضرورات اطمئنان الزوجة إلى زوجها والرضا بمعيشته هو أن تعرف كل شيء عن دوره في الدعوة، لأن المرأة تحب بطبعها أن ترى في زوجها أسباب اقتناعها به، فينشأ خطر رياء الزوج لزوجته في جهاده ودعوته وعمله.

ومن الأخطاء الشائعة في اختيار الزوجة امتحانها فكرياً من خلال منهج الحركة الإسلامية وبصورة دقيقة والخطأ في ذلك أن دور المرأة في الجهاد محدد بقوله صلى الله عليه وسلم: (جهادكن حج مبرور)[51]، وعلي هذا فيكون الفكر الحركي – كضرورة للجهاد – ليس داخلاً في دور المرأة ولكن من الممكن أن يكون الامتحان الفكري باعتبار الاطمئنان على ذكائها، أو الاطمئنان على استقرارها الفكري خوفاً من ظاهرة التقلب الفكري المرتبطة بظروف الفتنة الفكرية لضمان الاستقرار الاجتماعي بعد الزواج، والجدير

[50] ذكره ابن كثير.
[51] البخاري في (الحج) (3/381) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بالذكر أن المرأة غالباً ما تتبع ما عليه الزوج، وهذه الحقيقة يجب ألا تجعل الأخ يعوِّل كثيراً على الاختبار الفكري في جلسة الاختيار.

وفي جلسة الاختبار والخطبة غالباً ما يكون الأخ حريصاً على إعطاء صورة خطيرة لمستقبله، وذلك باعتبار الأمانة والاطمئنان على موقف الأخت التي سيتزوجها، والواجب في هذا الأمر باعتبار الأمانة فإنه يكفي فيه الأخ إعلان موقفه كمسلم يعيش في مجتمع جاهلي، وباعتبار الاطمئنان على موقف الأخت فإن قبولها للزواج من الأخ المسلم يعني ضمناً الاستعداد لتحمُّل الصعاب الناشئة عن اتخاذ الموقف الإسلامي الصحيح في المجتمع الجاهلي، ولكن ليس من الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل الصواب الاستطراد في ذكر الخطر والمبالغة في تصوير المحن، إذ إنه قد يصل هذا الخطأ إلى حد تشعر فيه الأخت أن الذي أمامها ليس خطيباً يريد الزواج، ولكنه مصيبة أتتها، وبلاء تمر به.

وبعد تحقيق التوافق بين الأسرة والدعوة، ووضع البيت في اتجاه الحركة من خلال معالجة مفهوم التجرد وتحقيق التوافق بأسلوب الدعوة، ثم تحقيقه في تكوين البيت تتحقق الآثار الطيبة للزواج، وتتأكد قيمته في واقع الدعوة من ناحية الفكر والعقيدة وناحية الحركة والعمل.

آثار الزواج من ناحية الفكر والعقيدة

وأول تلك الآثار هو أثر الزواج في الاعتقاد المترتب على أثر الحب في الفكر فهناك حقيقة إسلامية في النفس الإنسانية تؤكد أثر القلب والإحساس في الفكر اتفاقا واختلافا ومنطق هذه الحقيقة هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجنده، ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر اختلف)[52].

كذلك فهناك حقيقة أخرى توكد أثر العقل والفكر في القلب والإحساس اتفاقا أو اختلافا، ومنطوقها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[53].

ولما كان للزواج صلة مباشرة بإحساس الحب وللاعتقاد صلة مباشرة بصفة التفكير أصبحت هناك علاقة مباشرة بين الزواج والاعتقاد، وهذه أمثلة توكد هذه الحقيقة:

فهذا العاصي بن الربيع – زوج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم – يخرج من مكة فرارا من الإسلام فتبعث إليه ليرجع إلى مكة، ويدخل في الإسلام، فيبعث إليها برسالة هذا بعض نصها: (والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إلي من أسلك معك – يا حبيبة – في شعب واحد، ولكنى أكره لك أن يقال ان زوجك خذل قومه، فهلا عذرتى وقدرتي).

وواضح من الرسالة أن العاصي كان يحب زينب، بدليل أنه يود ويحب أن يكون معها في طريق واحد، أيما كان هذا الطريق، كما أنه كره لها أن يقال فيها ما يضايقها، ثم انه يطلب منها في النهاية أن تعذر وتقدر، ومن أجل هذا الحب فان زينب استطاعت أن تذهب إليه، وتأتى به مسلما.

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسى يدخل في الإسلام؛ فتأتى امرأته لكي تقترب منه، فيمنعها، ويقول لها: (لقد أصبحت على حرام، قالت: ولم؟ قال: أسلمت، فكان ردها: أنا منك وأنت مني وديني دينك)، وأسلمت[54]، من هذا الرد أنها اعتنقت الإسلام من

[52] علته البخاري في (الأنبياء) (6/369) ومسلم رقم (2638) رواية البخاري من حديث عائشة، ورواية مسلم من حديث أبي هريرة.
[53] أخرجه أبو داود في الصلاة (364 - 2/365) والنسائي في (الإمامة)، (89 - 2/90) من حديث البراء بن عازب وسنده صحيح.
[54] ذكرها ابن إسحاق مرسلة، أنظر البداية والنهاية (3/99).

خلال إحساسها بزوجها، حيث قالت: أنا منك وأنتي مني، وأخذت من إحساسها أساس اعتناقها للإسلام عندما قالت: وديني دينك[55].

وهذه أم حكيم بنت الحارث بن هشام أسلمت يوم الفتح بمكة وهروب زوجها عكرمة بن أبي جهل من الإسلام حتى قدم اليمن، فارتحلت أم حكيم حتى قدمت عليه باليمن، فدعته إلى الإسلام فأسلم فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما، وهذه أم سليم يأتى أبو طلحة ليتزوجها – وهو مشرك – فتأبى وتقول له: (إن أسلمت تزوجتك وصداقي إسلامك)؛ فأسلم فتزوجته[56].

وهذه الأمثلة توضح آثار العلاقة الزوجية والحب في الاعتقاد والفكر.

وإذا قرأنا كتب السيرة فسنجد أن الملاحظة العامة هي أن الذين أسلموا كان إسلامهم غالبا من خلال هذه العلاقة، وهذا هو أثر الزواج في العقيدة من ناحية الحب.

وكما أن العلاقة الزوجية القائمة بالحب تعتبر أساسا للاتفاق في الاعتقاد والفكر، فان هذا الاتفاق الفكري يعتبر بدوره أساسا لاستمرار العلاقة الزوجية وثباها؛ وذلك لأن هذا الاتفاق الفكري بثباته هو الذي يعطى للعلاقة الزوجية صفة الاستقرار التي تحميها من أثر الفتور الوجداني والتقلب النفسي الذي قد يعرض لتلك العلاقة.

ثم تأتى ناحية الفطرة والجمال والمنفعة كعلاقة بين الزواج والاعتقاد، فالاعتقاد يقوم بالفطرة في الإنسان والمنفعة والجمال في الكون، وهذه العناصر الثلاثة هي مدار العرض القرآني لقضية الاعتقاد، وهي التي تتعمق في النفس بالزواج؛ لأن الفطرة هي العنصر الأول في تحقيق الإيمان في الإنسان بأعماله الفطرية مهما كانت يسيرة، حتى ولو كان العمل مثل (قص الأظفار) الذي أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من الفطرة[57]. وقياسا على هذا العمل اليسير يصبح الزواج أقوى سلوك فطرى يحقق التزاوج في الإنسان لأن الله خلقنا {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} (النساء: 1). وبذلك تقوى الفطرة بالزواج.

---

[55] أنظر كتاب أُسد الغابة (4/70) ونسب قريش للزبيري (ص/310).

[56] أخرجه النسائي في (الكبري) كما في تحفة الأشراف (1/39) من طريق إسماعيل بن عبد الله بن أبي طلحة وثابت عن أنس ولم يعزه لمسلم – من هذا الطريق وأنظر أسد الغابة (345 - 341 /7).

[57] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لخمس من الفطرة الختان والاستحداد وتقليم الأظافر ونتف الإبط وقص الشارب) (متفق عليه).

وعندما يتزوج الإنسان أيضا فانه يحقق السرور بالنظر إلى من اختارها زوجة له، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا نظرت إليها سرتك)، وارتباط السرور بالنظر هو معنى الإحساس بالجمال، وبذلك أيضا يعمق الزواج في النفس الإحساس بالجمال.

وعندما يتزوج الإنسان فانه يكون قد حقق خير المتاع لنفسه في الحياة الدنيا، وحقق خير المنافع لأن (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)[58]، وبذلك يكون الزواج فطرة ومنفعة وجمالا، يعطى الإنسان عمقا للإحساس بالقرآن، وهو يعرض قضية الإيمان بالله من خلال هذه العناصر الثلاثة (الفطرة) في الإنسان و (المنفعة) و (الجمال) في الكون؛ ولذلك جاء في تفسير قول الله عز وجل: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ} (سورة النور الآية: 33) قول عكرمة: (هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى، فأن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقضى حاجته منها وان لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله)[59].

واضح في قول عكرمة كيف أن النظر في ملكوت السموات والأرض هو التصرف المعالج لأثر افتقاد الزوجية، وكيف أن الزواج يجمع آثار النظر في ملكوت السماوات والأرض، حيث تكون الفطرة والمنفعة والجمال.

ونواصل بحث آثار الزواج في واقع الدعوة من ناحية الحركة، فالعلاقة الزوجية تغرس في النفس طاقة الامتداد بقضايا الدعوة في حياة الناس، وذلك عندما ترتبط الدعوة بعملية التزاوج؛ إذا أن الإنسان يحب بطبعه أن يكون آي أمر مرتبط بزواجه أمرا عاما في حياة الناس كلهم؛ ولذلك نرى أن السيدة عائشة كانت تحب أن يتزوج النساء في شهر شوال؛ لأنها تزوجت في هذا الشهر.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال، فأي نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحظى عنده مني؟ وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال)[60].

وكذلك فان إحساس الغيرة والدفاع عن العرض كان الإمكانية الأولى لحماية الدعوة؛ إذا إن الولاء الحركي نشأ ارتكازا على طبيعة الغيرة والدفاع عن العرض، ولهذا كان نص البيعة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار هو قوله: (أن تحموني مما

---

[58] رواه مسلم، وسبق تخريجه.
[59] ابن كثير ج6: 55.
[60] رواه مسلم رقم (1423) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تحمون منه نساءكم وأموالكم)[61]، وتبقى طبيعة الغيرة الإنسانية على العرض طاقة مستمرة لحماية الدعوة حتى تصبح الغيرة على الدين قرينة الغيرة على العرض، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)[62].

والعلاقة الزوجية تغرس في نفس الإنسان صفة أخلاقية مهمة تعتبر الأساس الأول في الالتزام بالجماعة المسلمة، وتلك الصفة هي الارتفاع بمستوى الالتزام بالجماعة فوق مستوى الانفعال النفسي، وذلك لأن العلاقة الزوجية هي التي تحقق في الطبيعة الإنسانية صفة الاتزان السلوكي؛ لأن ثبات العلاقة الزوجية دون التأثير بالانفعالات النفسية قاعدة قرآنية، إذ يقول الله عز وجل: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرا} (النساء: 19).

ولذلك يقول الإمام ابن القيم[63] في قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (البقرة: 216). وقوله عز وجل: {فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيراً} (النساء: 19).

(فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية، فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعادة، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كبير لا يعرفه، فالإنسان كما وصفه به خالقه (ظلوم جهول) فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره له بأمره ونهيه).

وهذا هو المطلوب في علاقة الرجل بالجماعة؛ إذا إن الالتزام بالجماعة المسلمة لن يكون صحيحا إلا إذا ارتفع فوق الظروف النفسية، ومن هنا كانت البيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.

---

[61] أخرجه أحمد في المسند (3/322) من طريق أبي الزبير عن جابر في حديث طويل وفيه (وعلي أن تنصروني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم...)، وسنده حسن وعند البيهقي في السنن (9/9) التصريح بالتحديث عن جابر: أن جابراً حدثه. و الحديث صححه الحاكم (2/625 - 624)، ووافقه الذهبي وجوده ابن كثير في النهاية (160/3).

[62] متفق عليه: والبخاري في الإيمان (1/126)، ومسلم رقم (1599) عن النعمان بن بشير.

[63] طريق الهجرتين وباب السعادتين.

كما أن العلاقة الزوجية هي أكبر أسس الالتزام في الدعوة الإسلامية من الناحية التنظيمية، وذلك لأن ولاء الزوجة للجماعة يكون من خلال علاقتها بزوجها وقوامته عليها؛ إذ إن علاقة الزوجة بزوجها هي علاقة سمع وطاعة، وعلاقة الزوج بالجماعة المسلمة هي أيضا علاقة سمع وطاعة، ولهذا لم تكن هناك بيعة مباشرة لأي امرأة في الجماعة المسلمة، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبايع النساء إلا بيعة عامة.

كما أنه ليس هناك ولاء مباشرة بين امرأة وأخرى؛ لأن المرأة في الدعوة لا تتولى الأمور، والدليل هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)[64].

والقاعدة في العلاقة بصفة عامة أن الرجال ولاة النساء، والله يقول: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} (التوبة: 71): آي أن المؤمنين أولياء المؤمنات.

ومن هنا كانت هناك قاعدة مهمة تتعلق بالعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة، وهي أنه لا يجوز للجماعة أن تتدخل في واقع الأسرة إلا من خلال الزوج – صاحب تلك الآسرة – بدليل إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد آن يجعل النساء يخرجن إلى المساجد لم يصدر آمرا مباشرا إليهن بذلك، ولكنه آمر النساء ألا يخرجن بدون إذن الأزواج، فقال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج من بيتها بدون إذن زوجها)[65]، ثم أمر الرجال بألا يمنعن النساء من المساجد، فقال: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[66].

والملاحظة في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر النساء بوصفهن إماء الله حتى يكون منطقيا ألا يمنعن عن مساجد الله، وذلك لكي لا يطغى إحساس الرجل بالمرأة التي تحب عليها طاعته على إحساسه بها كأمة لله تريد عبادة الله.

وهناك مثال تطبيقي لتلك القاعدة التنظيمية التي تحدد العلاقة بين الأسرة والجماعة من خلال قوامة الرجل على زوجته وولائه للجماعة، وهذا المثال هو حادثة كعب بن

[64] البخاري في التفسير (126 /8) من حديث أبي بكرة.
[65] أخرجه أبو داود الطيالسي (2/263) بلفظ (... وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه...) من طريق الليث عن عطاء عن ابن عمر، وأخرجه البزار (2/177) كشف بلفظ (... ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه...) من طريق حنش الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس، ولهما شاهد عند الطبراني في الكبير (20/62) من طريق السكسكي عن معاذ ولفظه: ولا يحل لامرأة أن تأذن في بيت زوجها إلا بإذنه ولا تخرج وهو كاره. قال الهيثمي (4/313): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.
[66] البخاري في (الصلاة) (2/382) ومسلم (442) في (الصلاة) من حديث ابن عمر بلفظ آخر. واللفظ المذكور لأبي داود كما في سننه (2/273) من حديث أبي هريرة.

مالك عندما تخلف عن غزوة تبوك، حيث أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقاطعه المسلمون فأصدر أمره إلى المسلمين بمقاطعته، ولكن عندما أراد صلى الله عليه وسلم أن تقاطعه زوجته لم يأمرها هي بذلك، بل أمره هو أن يقاطعها، فأمر كعب زوجته أن تذهب إلى أهلها، وتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب يثبت هذه القاعدة المحددة للعلاقة التنظيمية بين الأسرة والجماعة.

وإذا كان الزواج بتصور الحركة الإسلامية يمثل طاقة للامتداد بقضايا الدعوة، وامكانية أساسية لحماية الدين باعتبار الربط بين الغيرة على العرض والدين، أساسا في تحقيق الالتزام بالجماعة من الناحية النفسية والتنظيمية، فان إطار الحركة هو إطار العمق النهائي في المشاعر الزوجية وصدقها، باعتبار وحدة الموقف والهدف بين الزوجين كأصحاب دعوة يعيشان واقعا واحدا يحيط به الخطر من كل ناحية، وبذلك يأخذ البيت استمرارية هدف الدعوة وارتفاعه، وتأخذ العلاقة الزوجية عمق الارتباط الفكري الذي قامت عليه الجماعة المسلمة.

ونواصل بحث آثار البيت في الفكر والحركة، فنأتي إلى الإحساس بالأبوة وأثره في الاعتقاد والحركة ونبدأ بناحية الاعتقاد.

فالإحساس بالوالدين يعمق في الإنسان والإحساس بالعبودية لله سبحانه إذ إن العبودية في حقيقتها هي الخضوع لله والإحساس بسلطانه علينا؛ ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يقر بعبوديته لله فانه يقر كذلك بعبودية والديه ليزداد الإحساس بالعبودية عمقا، فيقول: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضي في حكمك، عدل في قضاؤك)[67].

فيتضح من الحديث كيف أن الإحساس بسلطان الله – الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: (ناصيتي بيدك ماض في حكمك) – بدأ بإقراره بعبودية والديه.

ومن هنا كان الإحساس بالوالدين حماية للإنسان من فقدان الإحساس بسلطان الله علينا، حيث إن فقدان هذا الإحساس هو سبب الجبروت والشقاوة والعصيان؛ ولهذا يقول الله سبحانه على لسان عيسى: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} (مريم: 32)، وعن يحيى؛ {وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا} (مريم: 14)، كما كان ذكر عيسى عليه السلام دائما بقول الله: {عيسى ابن مريم} من أساليب الإثبات لعبوديته، غير أن هناك موفقا أقوى تأكيدا لقيمة الإحساس بالوالدين كحماية من الغرور، وهو موقف

---

[67] صحيح: أخرجه الإمام أحمد (1/391) والحاكم (509/ 1)، وابن حبان (3272) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وهو المعروف بدعاء الهمّ.

يوسف عليه الصلاة والسلام في لحظة التمكين عندما سجد له اخوته، فكانت معالجة هذا الموقف أن يوسف رفع أبويه على العرش؛ ليشعر بسلطان الله عليه، وعبوديته له، ومن هنا كان الإحساس بالوالدين ملازما لعبوديتنا لله في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} (الإسراء: 23)، وكان معنى الشكر للوالدين ملازما لمعنى الشكر لله في قوله تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (لقمان: 14).

وما سبق يبين أثر الإحساس بالوالدين في الاعتقاد.

وندخل في مجال الحركة حيث يغرس هذا الإحساس في نفس الداعية خوفا وقلقا على الإنسان الذي يدعوه؛ ولهذا يصور الله سبحانه مدى حرص الذين يعلمون الحق على الذين لا يعلمون في صورة اللذين يدعوان ولدهما إلى الإيمان: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} (الأحقاف: 17).

وعلاقة الأبناء تغرس في النفوس الإحساس السليم بالسلطة، فان كانت سلطة شرعية ممثلة في والدين مؤمنين وجب الخضوع لهما وطاعتهما، وان كانا غير ذلك وجب الخروج عليهما؛ لأن الله يقول: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان: 15)، وبذلك يصبح للوالدين الأثر الكبير في شخصية الفرد وعلاقته بالسلطة، فيصبح الخروج على السلطة أو الخضوع لها بمقياس واحد هو مقياس الشريعة؛ ليتفادى الإنسان عقدة التمرد على السلطة بالباطل أو الخضوع لها بدون حق. وهذا هو أساس الدعوة وغايتها.

الذرية

ثم تأتي الذرية فنجد أن البيت يعد أن يتكون - بتصور الحركة - يصبح بذاته منطلقا للتصور الحركي عن الذرية، فالذرية في بيت الدعوة ليست مجرد إحساس بالرغبة في التناسل؛ إذ إن الإحساس بالذرية في واقع الدعوة يأتى باعتبار أن هذه الذرية هي الاستمرار البشرى لواقع الدعوة، بما في هذا الاستمرار من إمكانية وطاقة، وهذا معنى ما جاء في تفسير قول الله عز وجل: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (الفرقان: 74) يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس: (يعنون من يعمل بالطاعة، فتقر أعينهم في الدنيا والآخرة).

وقال عكرمة: (لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين).

وقال الحسن البصري - وقد سئل عن هذه الآية -: (أن يرى الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شي أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل)؛ ولهذا نجد زكريا يصرح في دعائه لله عز وجل بالذرية بضرورة الاستمرار فيقول: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} (مريم: 5 - 6).

وكما ارتبطت قرة العين بالطاعة ارتبطت كذلك بالجهاد، وهذا نبي الله سليمان يرغب في إنجاب المائة فارس، حيث جاء في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن سليمان قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة تنجب كل واحدة فارسا يجاهد في سبيل الله)[68]. ومن هنا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما تعدون فيكم الرقوب؟ قال: قلنا الذي لا ولد له، قال: لا، ولكن الرقوب الذي لم يقدم من ولده شيئا)[69] آي في سبيل الله.

[68] البخاري في (النكاح) (9/339)، و (الجهاد) (6/ 458) عن أبي هريرة ومسلم عنه أيضاً رقم (1654).
[69] رواه مسلم في كتاب (البر) (106) وأحمد (382/1، 367/5).

وبهذا التعريف يكون ارتباط الرغبة في الذرية بالجهاد في سبيل الله، وليس أدل على الدعوة واستمرارها بالذرية من قصة التيه الذي كتبه الله على بنى إسرائيل؛ إذ إن المقصود من هذا الحكم كان إنهاء وجود الجيل الضعيف

وإنشاء جيل قوى، وهو الذرية التي ولدت في التيه، والذين تم على أيديهم فتح بيت المقدس, كما جاء عن ابن كثير: (فلما انقضت المدة – آي مدة التيه – خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقى منهم وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثاني – يعنى الذرية القوية –)، وفى رواية ابن أبى حاتم: (فهلك كل من جاوز الأربعين سنة – يعنى الذرية الضعيفة –).

والذرية تعتبر الرصيد الفطري الذي تقوم عليه الدعوة؛ ولهذا دعا نوح بهلاك القوم لما رأى هذا الرصيد الفطري يحترق، وقال نوح: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} (نوح: 26 – 27)، ولهذا أيضا لم يدع النبي صلى الله عليه وسلم على قومه لما كان عنده أمل في ذرية هؤلاء القوم، فعندما نزل ملك الجبال على الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف، وقال له: (مرني أن أطبق عليهم هذين الأخشبين)، فقال عليه الصلاة والسلام: (دعهم؛ فإني أرجو الله أن يخرج من ظهورهم من يعبده ولا يشرك به شيئا)[70].

والأمل في الذرية الذي نؤكد من خلال موقف نوح والرسول صلى الله عليهما وسلم هو في الحقيقة أساس وجود الدين على الأرض؛ لأن بقاء الحياة الدنيا مرتبط بوجود الفطرة.

بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع)[71] يعني: كافر ابن كافر، وفيه دليل كفر الناس وذريتهم؛ إذ ينعدم الرصيد الفطري ويصير أولاد الدنيا كلها مثل أولاد نوح فتقوم الساعة.

وكلما طال عمر الإنسان في جاهليته كلما بعد عن الفطرة، وقل استعداده للالتزام بالحق والجهاد في سبيل الله؛ ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فصدقني الشباب وكذبني الشيوخ). وقال الله تعالى – عن قوم موسى: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} (يونس: 83). وهذه الظاهرة مرتبطة بحقيقة في النفس الإنسانية يحددها الرسول

[70] رواه مسلم (148) في الإيمان عن أنس.

[71] صحيح ك أخرجه الترمذي رقم (2209) وأحمد في المسند (5/389) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

صلى الله عليه وسلم بقوله: (يكبر الإنسان ويكبر معه شيئان، المال والحياة)[72]، ومما لاشك فيه أن حب المال وحب الحياة هما الداءان الأولاد في معرفة الحق والالتزام به، وهذا ما يحتم على أصحاب الدعوة اعتبار فترة الطفولة والشباب فرصة أساسية في حياة الإنسان؛ ولهذا فرح المسلمون فرحا شديدا بمولد عبد الله بن الزبير – وهو أول مولود في المدينة بعد الهجرة – وذلك لأن اليهود وهي التي تعلم قيمة الذرية في الدعوة وأثر الآباء في الأبناء – هي التي حاولت بالسحر أن توقف الاستمرار البشرى للدعوة الإسلامية؛ ولهذا جاء في صحيح البخاري[73] أنه لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود ولد في المدينة فرح المسلمون فرحا شديدا لأنهم قيل لهم إن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم، غير أنه لكي تكون الذرية امتدادا قويا للدعوة الإسلامية كان لابد من الربط بين أسس التربية الإنسانية وضرورات الدعوة، حتى تصبح هذه التربية تهيئة فعلية للممارسة الصحيحة لتلك الدعوة، والاستعداد لتحمل تكاليفها، ومن أجل الذرية تكون التربية.

[72] متفق عليه: البخاري (11/239) في الرقاق، ومسلم رقم (1047) من حديث أنس.

[73] البخاري في (العقيقة) (9/587) من حديث أسماء بنت أبي بكر، وأصله في صحيح مسلم في (الأدب) رقم (2146) من حديثها أيضاً.

أسس التربية

والأساس العام في التربية هو حقيقة التوازن.

لأن هذه الحقيقة أساس الخلق، سواء في مجال البناء الكوني أو البناء الإنساني، حيث إن العلاقة بين البناء الكوني والإنساني حقيقة ثابتة ذكرها ابن القيم في كتاب الفوائد حيث يقول: إن الإنسان هو الغاية التي خلق الله سبحانه لأجلها ما سواه من السماوات والأرض والقمر والنجوم والبر والبحر، وأن الله سبحانه وتعالى جمع ما فرقه في العالم في آدم، فهو العالم الصغير، وفيه ما في العالم الكبير وأن الإنسان هو خلاصة الوجود وثمرته.

وبذلك تقوم تربية الأولاد على أساس التوازن باعتبار أن مرحلة التربية هي مرحلة التكوين لهذا البناء الإنساني.

ولذلك نلاحظ أن مفهوم التوازن نفسه هو مضمون أساسيات منهج التربية.

فنجد التوازن بين المنع العطاء.

والتوازن بين الترغيب والترهيب.

والتوازن بين مسلمات حق الطفولة ومقتضيات التهيئة للرجولة.

إلى آخر حقائق التوازن الواضح في منهج التربية.

والآن وبصورة محددة ننتقل إلى أساسيات هذا المنهج:

أولاً: إتمام الرَّضاعة:

وهذا الأمر له منافع كثيرة، ولكنه يمثل ضرورة مهمة للدعوة، وهي أن إتمام الرضاعة يحمي الفرد من حب الإمارة والرغبة في التسلط[74] بدليل هذا الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة

[74] قام مجموعة من العلماء بإجراء بعض الأبحاث والتجارب علي قبائل مختلفة لبحث العلاقة بين الرضاعة وحب التسلط وكانت النتيجة أن الفرد الذي لا تتم رضاعته ينشأ فاقداً للثقة بنفسه، تلازمه رغبة شديدة في التسلط. وقد ذكرنا هذه النتيجة باعتبار موافقتها لمدلول الحديث.

وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة)[75]، ولعلنا ندرك قيمة هذا الأمر في مواجهة واقع التفرق والاختلاف.

ثانياً: العقيدة:

وتلقين العقيدة يقوم تربوياً على الثقة في عقلية الطفل إلى درجة القدرة على التجريد المعنوي للحقائق، فيكون الطرح العقدي البسيط على الطفل، لأن الثقة لا تعني التعقيد في المضمون أو الأسلوب.

أما دليل البساطة في تلقين العقيدة فهو سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لجارية صغيرة عن الله والرسالة، عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجارية له سوداء فقال: يا رسول الله إن عليّ رقبة مؤمنة فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت نعم، قال: أتشهدين أن محمداً رسول الله؟ قالت: نعم. قال: أتوقنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقها).

وفي إطار التلقين العقدي للطفل يجب أن ننأى بقضايا الخلاف عن أبناء الدعوة، لأن تعرضهم في طفولتهم لهذه القضايا يجعل منها خلفية فكرية لعقليتهم، بل ويجعل هذه القضايا عندما يصطدمون بها في صغرهم محوراً لحياتهم الاجتماعية بأسرها.

وهذا مثل مضحك لهذه النتيجة، وهو من مضحكات الفتن، وذلك أن زوجة لرجل قدري (الذين يعتقدون أنه لا مشيئة للإنسان وأن الأمر آنف) أخطأت خطأ أخلاقياً جسيماً فأراد أن يعاقبها ويفتك بها، فلما رأت أنها هالكة لا محالة قالت: يا رجل ألم تعلم أن الأمر آنف وأنه لا حيلة لي فيما فعلت، أم أنك تريد أن تقول بمذهب ابن عباس، فثاب الرجل إلى رشده واستغفر على محاولة عقابها!

ومن أهم أساسيات تربية الأولاد عقدياً هو تنشأتهم على حب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك أن التربية على حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها قيمة تربوية عليا، لأنها تحمي الشخص المسلم من التيه في مرحلة اختيار المثل – مرحلة الشباب – فيمنعه ذلك أن يتأثر بأي شخصية أخرى مهما بلغ شأنها ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة الحسنة.

---

[75] البخاري في الأحكام (13/125) من حديث أبي هريرة.

ولعل النص القرآني في التعقيب على التأسي برسول الله هو الذي يحدد العلاقة بين هذا التأسي وبين الغاية النهائية للمسلم. وهي الله واليوم الآخر.

فقالت الآية: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب: 21).

وأساس الارتباط بين التأسي برسول الله وتحقيق غاية المسلم هو أن هذا الحب يحقق أعمق بُعد عاطفي للتصور الاعتقادي في كيان الإنسان المسلم. ولعل حادثة ابني عفراء دليل على قيمة الانطلاق من هذا الحب في واقع الدعوة.

أخرج الشيخان عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (بينا أنا واقف في الصف يوم بدر نظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت لو كنت بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال يا عم هل تعرف أبا جهل قال قلت نعم وما حاجتك إليه يا بن أخي قال أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا قال فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال مثلها قال فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه قال فابتدراه فضرباه بسيفهما حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلت فقال هل مسحتما سيفيكما قالا لا فنظر في السيفين فقال كلاكما قتله)[76].

ولعلنا نلاحظ أن الاثنين كانا مندفعين إلى غايتهما من الإحساس بالألم من سب أبي جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى بلغا هذه الغاية التي كانت ولا شك بعيدة.

فالظرف الذي يسألون فيه عن بغيتهم كان ظرفاً قتالياً... وبغيتهم لم تكن شخصاً عادياً، بل كانت رأس الكافرين الذي كان ولا شك محاطاً بسياج من الحماية العسكرية. أو بتعبير راوي الحديث (يجول في الناس) ومع ذلك بلغا بغيتهما ونجحا في المهمة.

[76] أخرجه البخاري ومسلم والحاكم والبيهقي عن عبد الرحمن بن عوف بنحوه.

ثالثاً: تحقّق العبودية لله:

العبودية لله هي الغاية النهائية للدعوة، لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (علموا أولادكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع)[77]، وهذا المر هو الذي سيغرس في نفس الولد الإحساس بالتناقض بينه وبين أي مجتمع لا يقيم الصلاة، وسيبقي الإحساس بالتناقض آخذاً صورة العمل للتمكين لهذه العدوة حتى ينتهي هذا الإحساس بإسلام المجتمع وإقام الصلاة: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ} (الحج: 41).

كما أن الأمر بالعبادة هو منبع القدرة الفعلية على تحمُّل تكاليف الدعوة، ولذلك يقول الله تعالى: {اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} (البقرة: 153 - 154)، والأمر بالصلاة هو الذي يحمي الحركة الإسلامية - عند الجهاد والقتال - من الخروج عن طبيعتها وغايتها، إذ إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل أي العمل أفضل قال: (الصلاة على وقتها، قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قيل: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[78].

فيأتي الجهاد من منطلق العبادة وبعد بر الوالدين، فلا يخرج القتال عن هدف تحقيق العبودية لله في الأرض، وحماية المجتمع المسلم القائم بالبر، وعلي هذا فالمسلم الذي يقيم الصلاة هو الذي يندفع بكل طاقته الإنسانية لتحقيق غاية الدعوة - إذا كان يعيش واقعاً جاهلياً - وتحقيق التوافق بين تصوره والواقع الذي يعيشه، وينتزع إحساسه بالتناقض بينه وبين المجتمع الجاهلي بعملية التغيير التي تمثل الحركة الإسلامية.

وعنصر الضرب من أجل الصلاة معناه التدخل المباشر في تكوين الشخصية الإنسانية بما يتفق مع غاية الدعوة، وهذا ينمي في تلك الشخصية ممارسة الإذعان للحق.

والحقيقة أن ما يقابل ضرب الأولاد على الصلاة هو النهي عن ضربهم على كسر الآنية.

فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تضربوا أبنائكم على كسر الآنية فإن لهذه الأشياء أجل).

---

[77] صحيح: أخرجه أبو داود (2/162) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وسنده وبنحوه أخرجه الترمذي في (الصلاة) (407) وأبو داود أيضاً من حديث سبرة وسنده صحيح. وهو شاهد قوي لحديث عمرو بن شعيب.

[78] البخاري في (الصلاة) (2/9) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذا التقابل في غاية الأهمية.

ذلك لأنه ينشئ في نفس الطفل معياراً أساسياً للأهمية والقيمة في حياته.

فالعبادة أهم ما يمكن أن يكون في حياة الطفل أما الأمور المادية الدنيوية... فلا يُضرب عليها... فينشأ الشخص وقد ترتبت في حياته الأمور حسب أهميتها.

ولكن الصلاة بالنسبة للطفل يجب أن تكون في المسجد وفي هذا قيمة تربوية عظيمة، نجدها بداية في تقوية الإحساس بالرجولة حيث يخالط الرجال في المسجد.

ولكنه لا يتجاوز بهذا الإحساس من هم أكبر منه، حيث يعرف مكانه بينهم من خلال ترتيب الصفوف، فهو يرى صف الرجال ثم الأطفال.

وعندما يكبر ويتقبله المصلون الرجال في صفوفهم فإن هذه الخطورة ستكون أعظم موقف في حياته التربوية حيث يشعر بذاته ورجولته من خلال عبادته ومسجده.

وعندما يشارك الرجال في مجلس العلم... ويفتح الله عليه بفهم أو كلام يشعر أن علاقته بمن يسمعه ممن هو أكبر منه سناً، علاقة رحمة وتقدير، وأن ترتيب الصفوف لا يعني الامتهان أو التحقير لأنهم وهم يرجعون به إلى صفوف الأطفال... هم أنفسهم يسمعون له، ويفرحون بفهمه ويقرون بصوابه.

توازن مطلق...

كما أنه عندما يجلس في مجلس علم فإنه يمارس تحصيل العلم بإرادته ورغبته فيحب العلم، ويسعي إليه... ويمتد من خلال هذه الإرادة والرغبة والحب إلى جميع مجالات العلوم النافعة.

وعندما يحفظ القرآن والعلم بسهولة ويسر لأنه في بداية عمره وكمال طاقته الذهنية، فإنه يظل واثقٌ بعقليته وذاكرته وذهنه طوال عمره.

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يلتقي بغلام فيظنه مثل الغلمان، حتى يكتشف فيه الرجولة، فيتعامل معه معاملة الرجال، وفي المسجد كانت التجربة... وكان الدرس...

عن أبي أيوب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت معه المسجد يوم الجمعة، فرأى غلاماً، فقال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد، قال: يا غلام اذهب العب، قال: إنما جئت إلى المسجد. قال: فتقعد حتى يخرج الإمام، قال: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الملائكة تجيء يوم الجمعة، فتقعد على أبواب المسجد، فيكتبون السابق والثاني والثالث، والناس على منازلهم حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام طويت الصحف)[79].

رابعاً: المعاملة:

وتحدد – هنا – الكيفية الصحيحة للتعامل مع الأولاد والمدخل إلى هذا التعامل هو الجانب العاطفي لهم.

لأن الطفل لا يشعر بعلاقته بغيره إلا من خلال إحساسه بحياته وظروفه.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع من إحدى الغزوات منتصراً.

ولنا أن نشير إلى الحالة النفسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقائد منتصر راجع إلى مدينته.

حيث نفاجئ بانتقاله من هذه الحالة وتوجهه إلى غلام من الأنصار كان له عصفور يربيه وكان رسول الله قد ترك المدينة وعصفور الغلام مريض.

فإذا به يسأل الغلام ويكون ذلك أول ما فعله بعد الرجوع من الغزو: يا أبا عمير ما فعل النغير.

وكأن عصفور الغلام كان يشغل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أخطر حالات الانشغال بالحرب والقتال.

فلابد أن يشعر هذا الغلام أنه ليس على هامش الحياة... وأنه في صلب المجتمع، بل وقمة الاهتمام به، لأنه اهتمام رسول الله وهو في أهم المهام.

هكذا يشعر أبناؤنا بذاوهم.

ولم يكن أمر بسيط أن يعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوت صفة الخيرية للأمة على العلاقة العاطفية بين الرجال والأبناء حيث يقول: (لن تزال أمتي بخير ما دام صغيرها يوقر كبيرها وكبيرها يعطف على صغيرها). ويتمم أساس التعامل... أساس الآداب... وأهمه آداب الإسلام على النعمان.

[79] رواه أحمد.

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على غلمان فسلم عليهم، وفي رواية فمر على صبيان فسلم عليهم.

وابتداءاً بالسلام، نبلغ الحد النهائي في الحق الاجتماعي للأولاد، ويمثل هذا الحق... هذا الحديث.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: (أن رسول الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه – وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ – فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحداً، قال فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده).

وكل ما سبق من أساسيات في العقيدة والعبادة والتعامل والآداب، لا يجب أن نتجاوز به الواقعية التامة في التعامل مع الأطفال.

فالطفل هو الطفل. لا مانع من شغله باللعب عن الجوع في الصيام. فيكون اللعب معيناً له على الصبر. فلا نترك الطفل لحقيقة الصبر دون أن نخفف عنه الإحساس به. ولكننا حين نضع له اللعب، فإننا لا نخرج بها عن غايتنا التربوية فيه فاللعب له أحكام.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل لهو هو باطل ما عدا مداعبة أهله وفرسه ورمية بسهم).

قد يكون لعب الأطفال من جنس اللهو الذي يلهو به الكبار، فيكون لعب الذكور كله متجه نحو تحقيق خصائص الرجولة.

أما لعب الإناث فإنه يكون متجهاً نحو تحقيق خصائص الأنوثة فيهن.

وهذا هو حق اللهو.

ولعل تدخل رسول الله مه عائشة وهي جارية في لعبة كانت تلعب بها دليل على دقه اختيار اللعب. حيث وجدها تصنع فرساً له أجنحة. فسألها: (ما هذا يا عائشة فرس له أجنحة) ومعني السؤال أن اللعبة يجب أن يكون لها معناها المعقول.

ولكن عائشة تثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فتقول له: أما علمت أنه كان لسليمان فرس له أجنحة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غير أن التربية لها بداية زمنية سابقة على كل هذه الأساسيات.

وهذه البداية تبدأ مع الولادة والرضاعة.

فمنذ لحظة الولادة التي يكون فيها الآذان أول ما يطرق سمعه.

ومروراً بالعقيقة.

التي يسمي فيها الطفل ويصير له نصيب من اسمه، ويقص فيها من شعره ليوزن ذهب يتصدق به، فتحدد علاقته بالذهب من خلال الشعر المتساقط منه، ليبقي المسلم طول عمره بعد ذلك مالكاً للمادة وسيداً عليها... لا يعلوه أي قيمة مادية مهما بلغت.

ويذبح له فيها الذبيحة... تكريماً له ووليمة للمسلمين المجتمعين من أجله الفرحين به.

وذلك عندما يرى كل طفل ما يصنع للمولود، فيعرف أنه قد صنع له مثلما يرى.

والتحديد المنهجي لمكانة الذرية في تصور الدعوة هو الذي يحقق أكبر أثر لهذه الذرية على الواقع الجاهلي.

وقد حدد لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المكانة عندما أراد أن يجعل من الشيطان لعبة لأولاد المدينة كما في الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي الدرداء قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك، ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثاً، ثم بسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله من قبل ذلك، وأريناك بسطت يدك، فقال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك فلم يستأخر ثم قلت ذلك فلم يستأخر ثم أردت أخذه فلولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة).

وكان مضمون الموقف هو أن (الأولاد) عندما يكونوا أولاد (المدينة) وهي منطلق الدعوة الزماني والمكاني من بدايتها ومعقلها الأخير حتى نهايتها مه نهاية الزمان.

عندما يكون الأولاد أولاد هذه المدينة يصير إبليس هو اللعبة.

خامساً: قوة الشخصية:

قوة الشخصية القادرة على مواجهة الحياة دون ضعف، من خلال تكوين هذه الشخصية بطاعة الله والإيمان بالقدر، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لابن

العباس: (يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذ سألت فأسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف)[80].

وهذا الحديث له صلة مباشرة بطبيعة الدعوة من حيث إن الذي يمارس من هذه الدعوة يجب أن يكون مؤمناً بقضاء الله وقدره إيماناً قوياً ثابتاً.

سادساً: الممارسة الفعلية للدعوة:

وهذه كانت نصيحة لقمان لابنه، وقيمة هذه النصيحة هي تنمية الإحساس بأي خطأ، والقدرة على الدعوة إلى كل خير حفاظاً على شخصية الابن: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (لقمان: 17).

وفي ذكر تلك النصيحة بصيغة توجيه من الأب إلى الابن محاط بمشاعر الأُبوة في مجال الدعوة، حيث إن حرص الدعاة على الناس لا يقل عن حرص الأب على ابنه، ولذلك جاء في تفسير هذه الآية: (فقد أتاه الله الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف[81].

وهكذا الدعاة يشفقون ويحبون ويمنحون أفضل ما يعرفون.

وهناك في مسألة الذرية أمر خطير، وهو أن الذرية تنشئ في الإنسان إحساس العيْلة، وهذا الإحساس يجب معالجته، إذ إنه من الضروري أن يسعى المسلم الداعية إلى قوت عياله مثلما يسعى تماماً في مصلحة الدعوة، لأن توافر القوت سيجعل واقع الداعية الاجتماعي منطلقاً حراً، ولهذا كان من الإعداد العملي للرسول صلى الله عليه وسلم لتحمُّل الرسالة قول الله سبحانه وتعالى (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} (الضحى: 6 – 8)، لأن احتياج الإنسان لقوت عياله سيتولد عنه إحساس بالذل يتنافى مع طبيعة الدعوة والاستعلاء بالإيمان.

---

[80] أخرجه الترمذي (2516)، وأحمد في مسنده (1/293)، والحاكم (3/541) كلهم من حديث ابن عباس، وله اسانيد عن ابن عباس. وصححه الحاكم ولكن عنده منقطع. كما صححه الترمذي، وهو كما قال وإن كان فيه ابن لهيعة فإنه تابعه الليث بن سعد وهو من رواية ابن المبارك عنهما.

[81] ابن كثير ص: 328 ج 6.

علي أنه من المهم أيضاً أن يكون هذا السعي محدوداً بالاحتياج الفعلي، حتى لا يتعدى هذا السعي تلك الحدود، فيتحول إلى انشغال بالمال والأهل مثلما قال المنافقون: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} (الفتح: 11)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا المقياس الذي نفصل به بين السعي الضروري والانشغال الخطير، فيقول: (من أصبح معافىً في جسده، آمناً في سِربه، يملك قوت يومه فقد ملك الدنيا بما عليها)[82].

وبعد أن لمسنا الآثار الضخمة الطيبة للبيت في واقع الدعوة فكراً وحركة ترتفع في نفوسنا قيمة البيت ارتفاعاً يحقق الإحساس بضرورة حمايته، وينشئ شعور الحذر من تخريبه.

[82] حسن لغيره: أخرجه الترمذي في الزهد (2346) وابن ماجه (4141)، والحميدي رقم (439) وهو في الحلية (5/249) وابن حبان (671) في صحيحه من حديث أبي الدرداء وللحديث طرق يتقوى بها ويرتقي.

حماية البيت

ولكن بيت الدعوة في الحقيقة بيت لا يعرفه الخراب، لأنه يتكون ومعه أسباب حمايته، وما علينا إلا أن نفهم هذه الأسباب ونأخذ بها:

وسنبدأ بذكر أسباب أصلية نتبعها بأسباب أخرى محددة من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

أما الأسباب الأصلية فهي الحب والرضا.

وعندما نذكر الناحية الوجدانية باعتبارها سبباً من أسباب حماية البيت، إنما يكون ذلك بنظرة معينة إلى تلك الناحية، فالمشاعر الزوجية هي قمة الإحساس بالحب الإنساني، وكذلك الحب بين الزوجين إطار محدد لا يعيش فيه إلا الزوجان، وهذا الفارق الجوهري بين الحب الإنساني عموماً وبين المشاعر الزوجية قد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله من ناحية الزوجة: (أن للرجل في المرأة شيء ليس إلا له)[83]، ومن ناحية الزوج لزوجته فقد وضح عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه فقال: عائشة، قالوا: من الرجال؟ قال: أبوها[84].

فالحب بين الزوجين هو أن يكون الزوج أحب الناس إلى زوجته، والزوجة أحب الناس إلى زوجها، وهذا يختلف عن مجرد الحب المتبادل الذي يكون بين الناس.

حتى في الجنة تكون هذه حقيقة الحب بين الأزواج، ولهذا تعبر زوجة المؤمن في العلاقة الزوجية تعتبر مصدراً ذاتياً لهذا الحب، وهذا معناه أن مشاعر الحب تزداد بين الزوجين باستمرار هذه العلاقة، وهذا هو الذي جعل الحب سبباً أصلياً لحماية العلاقة الزوجية، ولذلك جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب الطلاق من زوجها، ولم يكن قد تم بينهما فترة تكفي لتحقيق المودة القوية، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الطلاق قائلاً: (لا، حتى تذوقي عُسيلته ويذوق عُسيلتك)[85].

---

[83] أخرجه ابن ماجه في الجنائز (1590) ن والحاكم في (معرفة الصحابة) (16 - 4/62) ورواه أبو داود.

[84] متفق عليه: البخاري في المناقب (7/18)، ومسلم في (الفضائل) (2384) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

[85] متفق عليه: البخاري في (اللباس) (10/264) ومسلم (1433) من حديث عائشة.

وتذوُّق العسيلة هو الجماع، أقوي منابع الحب إذا كان سليماً في العلاقة الزوجية، وأخطر أسباب الفشل في تلك العلاقة إذا كان خطأ، بدليل أن رسول صلى الله عليه وسلم أقر امرأة أخرى على الطلاق من زوجها لما فشلت بينهما المعاشرة الجنسية، إذ قالت المرأة: (يا رسول الله! إن فلاناً لا أعيب عليه خلقاً ولا ديناً، ولكن أكره الكفر بعد الإيمان)، وفي رواية أخرى عللت طلب الطلاق مباشرة بهذا الفشل الجنسي، ولما كان الأمر بهذه الخطورة كان لابد من الاهتمام بالمعاشرة الزوجية غير أن الاهتمام يجب أن يرتكز على وصايا النبي في هذا الأمر وأهمها:

أولاً: أن يكون الجماع في جو عاطفي يملؤه الحب والانسجام، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يضرب أحدكم زوجته ضرب الأمة في أول النهار حتى يأتي آخر الليل فيضاجعها)[86]. وكما يجب أن يسبق ويلازم الجماع جو عاطفي وجداني، وهو مفهوم الحديث، فإن هذه العاطفة وذلك الوجدان يجب أن تبقيا دائماً حتى وإن لم يكن هناك جماع، وهذا حديث عائشة الذي تصف فيه معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في حال حيضها، حيث لا يكون جماع، إذ تقول (كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب، فأناوله، فيضع فمه الذي كنت أشرب منه)[87].

ونواصل ذكر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في الجماع.

ثانياً: وأن يتم التزيُّن، فيجب أن تكون المرأة حريصة على أن يراها زوجها جميلة، فمن صفات المرأة الصالحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا نظرت إليها سرتك)[88]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث عند عودته بالجيش من يخبر أهل المدينة: (حتى تمتشط الشعثاء وتستحد المغيبة)[89]، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي الصحابة بالا يدخلوا على أهلهم ليلاً، جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله

86 متفق عليه: البخاري (8/755) ومسلم (2855) عن عبد الله بن زمعة.

87 أخرجه مسلم من حديث عائشة في الحيض رقم (300) وهو عند النسائي (6/148) وغيره. (ولعل هذه المعاملة الراقية هي الصورة المقابلة لمعاملة اليهود للحائض حيث لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يبيتون معها في مكان واحد).

88 سبق تخريجه (ص: 36).

89 البخاري في (النكاح) من حديث جابر رضي الله عنه. جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، وفي رواية ليلاً يتخونهم.

عليه وسلم أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، وفي رواية: ليلاً يتخونهم بالليل، وكان الصحابي[90] يقول: (كنا نتزين لنسائنا كما كانت نساؤنا تتزينّ لنا).

ثالثاً: كما تستحب المداعبة بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم لجابر ابن عبد الله: (أما تزوجتها بكراً تلاعبها وتلاعبك)[91].

رابعاً: وكذلك التطيب بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان دائماً يمس طيباً، ويعتني بالرائحة، وخصوصاً رائحة الفم، حتى أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم لما غرن من ذينب بنت جحش، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأكل عندها عسلاً اتفقن جميعاً على أن يقلن للرسول صلى الله عليه وسلم: (رائحة فمك مغافير)[92] فاغتمَّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى حرم على نفسه العسل، ونزل القرآن ينهاه عن التحريم)[93].

خامساً: كما تجب مراعاة التسمية، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا أتى أحدكم أهله فسمي الله، وقال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد، لا يضره الشيطان)[94].

ولعلنا نلاحظ أن الأمر إلى الزوج باعتبار أن الزوج هو الفاعل، ومن السنة الجماع عند الرغبة مباشرة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أنه: (إذا رأى أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه)[95].

ويقول الله سبحانه وتعالى: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} (البقرة: 223)، وذلك لتفادي خطورة كبت الرغبة[96].

سادساً: أن لا يتركها بعد أن يقضي حاجته منها قبل أن تقضي زوجته حاجتها أيضاً، لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جامع أحدكم زوجته، فليصدُقها

---

[90] القائل: عبد الله بن عباس أخرجه ابن جرير (4/532) موقوفاً عليه.
[91] متفق عليه: البخاري في (النكاح) عن جابر، ومسلم في الرضاع أيضاً رقم (1466) باب (15).
[92] نبات له رائحة كريهة.
[93] البخاري في (النكاح) (9/374) ومسلم (1474).
[94] البخاري عن ابن عباس (9/228) ومسلم عنه أيضاً و (1234).
[95] أخرجه مسلم في النكاح رقم (1403) من حديث جابر.
[96] يراجع كتاب الطب النبوي لابن القيم (فوائد الجماع عند الرغبة مباشرة).

(يعني فليجامعها بصدق)[97] فإن قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فليصبر حتى تقضي حاجتها)[98].

ويفضل الاعتدال بمعنى أن تكون الرغبة طبيعية، وأن يكون الجماع في حدود القدرة الإنسانية بلا إرهاق زائد، ولا يدخل في هذا أي عامل غير تلك الرغبة الطبيعية.

ومع تذوق العسيلة، ثم الحمل وانتظار الولد، ثم الولادة يقوى الحب حتى تصبح المشاعر في قمة التآلف، ويتحقق التوافق التام في التفكير والإحساس بين الزوجين، ونراها كما وصفها القرآن تصل إلى حد دعاء الزوجين بدعاء واحد ومشاعر واحدة ولسان واحد. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} (الأعراف: 189).

ولعل وصول العلاقة الزوجية إلى ذلك الوجدان عند الولادة من أهم أسباب الحكم الشرعي الذي يقضي بتحرير الجارية إذا ولدت من سيدها، لأن هذه العلاقة الراقية وجدانياً لا يتفق معها أن تظل (أم الولد) رقيقاً يُباع ويُشترى.

والتعبير عن مشاعر الحب من الأمور التي تزيده وتنعشه، ولذلك كان من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لنا قوله: (إذا أحب الرجل أخاه فليخبر أنه يحبه)[99]. أما عندما يكون بين الزوجين فيجب أن يكون التعبير صفة دائمة وبكل الأساليب، وهذا أحد أساليب النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة، إذ يقول لها: (إني أعرف عندما تكوني غاضبة مني تقولي: ورب إبراهيم، وعندما تكوني راضية عني تقولي: ورب محمد)[100]، وتبادله عائشة مشاعر الاهتمام الدقيق بمشاعرها، فتقول: (والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك).

---

[97] أخرجه عبد الرازق في المصنف (6/194) عن طريق (ابن جريج) عن أنس أخرجه أبو يعلي في مسنده رقم (4200) و (4201) من طريق ابن جريج عمن سمع أنس عن أنس مرفوعاً وفيه مجهول، ولذلك قال الهيثمي في المجمع (4/295): (رواه أبو يعلي وفيه راو لم يسم وبقيه رجاله ثقات.

[98] حتى تشعر الزوجة برغبة الزوج الصادقة والحقيقة فيها.

[99] أخرجه الترمذي (7/71 تحفة) في الزهد وقال: حسن صحيح وأبو داود في الأدب (14/29) من حديث المقدام بن معدي كرب وسنده صحيح وأخرجه أيضاً الحاكم (4/71) وسكت عليه هو والذهبي، وأحمد (4/130).

[100] متفق عليه: البخاري في النكاح لا (9/310)، ومسلم (253/ 15) من حديث عائشة باختلاف في اللفظ.

ولا حرج من الإعلان عن الحب بين الزوجين في الواقع المحيط بهما، وقد مر بنا الحديث الذي سألت فيه الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه قال: عائشة، قالوا: من الرجال؟ قال: أبوها[101]، ولعلنا نلاحظ أن تقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عائشة أحب الناس إليه كان بلا حرج، كما نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما ذكر أبا بكر باعتبار أحب الناس إليه من الرجال ذكره بصفته أباً لعائشة فقال: أبوها).

وقد كان حب الرسول صلى الله عليه وسلم معروفاً لدى الصحابة إلى درجة اعتبار هذا الحب مقياساً لحب الخير كما جاء في الحديث: عن أم سلمة رضى الله عنها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كلمنها لتكلم النبي صلى الله عليه وسلم أن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وتقول له: إنا نحب الخير كما تحب عائشة، فكلمته فلم يجيبها، فلما دار عليها كلمته أيضاً، فلم يجبها، وقلنا: ما رد عليك؟ قالت: لم يجيبني. قلنا: لا تدعيه حتى يرد عليك، أو تنظرين ما يقول فلما دار عليها كلمتها، فقال: (لا تؤذوني في عائشة، فإنه لم يتزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن إلا في لحاف عائشة)[102].

و أما أخطر الأمور على مشاعر الحب التي يجب أن ننتبه إليها فهو استغلال تلك المشاعر بصورة غير سليمة ولو بأدنى مدى، وسنذكر موقفاً وقفته السيدة عائشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتكزت فيه على حبه لها، فغضب منها غضباً شديداً، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يمسك الجمل الذي يحمل هودج السيدة عائشة. وقد كانت كل زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم تعلم ذلك، فقالت لها حفصة ذات مرة: هلا تبادلنا الهودج، فركبتي أنتي هودجي، وركبت أنا هودجك، فننظر ماذا يفعل رسول الله؟ فقالت عائشة: أفعل، فلما ركبت حفصة مكان عائشة وسحب الرسول صلى الله عليه وسلم الجمل على أن عائشة في الهودج نظر فوجد حفصة، فغضب، وعُرف ذلك في وجهه إلى حد أن قالت عائشة: (رب سلّط عليّ عقرباً أو حية تلدغني)، وذلك بعد أن وضعت رجليها في الأذخر الذي تكثر فيه الهوام، فدعت على نفسها قبل أن يقول لها الرسول: لماذا فعلت ذلك؟[103]، ولعلنا نلاحظ أن حفصة دخلت إلى عائشة من الناحية التي تحب عائشة تأكيدها دائماً، وهي حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها.

---

[101] متفق عليه وسبق تخريجه.

[102] رواه النسائي في كتاب عشرة النساء برقم (3689).

[103] أخرجه البخاري في (النكاح) (9/310) باب (97) من حديث القاسم عن عائشة.

ومع الحب يأتي الرضا، فالزوجة عندما تكون راضية عن زوجها وعيشتها فإن هذا الرضا يمثل في حماية البيت طاقة الدفاع الكامل. وإن كانت غير راضية فستخرب بيتها بيدها، ولذلك نجد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما زار ابنه إسماعيل وجده قد تزوج، فسأل زوجته عن الحال والمعيشة، فقالت: الحال في ضيق، فرأى إبراهيم أنها غير راضية، فقال لها: إذا جاء إسماعيل فأقرئيه مني السلام، واطلبي منه أن يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل أخبرته بما حدث، فقال لها: أنت العتبة، الحقي بأهلك وطلقها[104].

فنجد في هذا الحديث أن إبراهيم سمع قول الزوجة فأمر إسماعيل بأن يطلقها دون أن يتبين حالتها فعلاً، لأن المسالة لا تتعلق بحالة الزوجة الفعلية، بل تتعلق بإحساسها بحالها ومعيشتها، وقد كان هذا الإحساس وحده كافياً لأن يحكم إبراهيم الخليل بطلاقها، إذا إنه لا أمان للمرأة التي لا تشعر باستقرارها وسعادتها مع زوجها في بيته، كما أن إسماعيل لم يتردد في تنفيذ ما طلبه إبراهيم، لأنه يعلم أن هذا هو الحق.

ولكن كيف يتحقق رضا الزوجة؟

والإجابة باختصار أن رضا الزوجة يتحقق بأن تجد المرأة طُمأنينة نفسها وجمال أنوثتها مع زوجها وفي بيتها، وبأن يسد الرجل احتياجاتها المادية ويحقق لها رغباتها النفسية، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً يعطي الإشارة الحقيقية إلى خطر المرأة عندما تحتاج، فقال: (كان فيمن كان قبلكم ثلاثة نفر كانوا في سفر فأمطرت عليهم السماء، فقالوا نختبئ في هذا الكهف فتدحرجت عليهم صخرة، فسدت عليهم الكهف، فقالوا تعالوا ندعو الله بصالح أعمالنا عسى أن يفرج عنا، فكان دعاء أحد الثلاثة هو موضع الاستشهاد بالقصة. قال: اللهم إنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها أشد ما يحب الرجال النساء فراودتها عن نفسها، فأبت، فاحتاجت إليَّ، فجاءتني، فراودتها عن نفسها، فرضيت حتى إذا كنت بين شُعبها الأربع قالت: يا هذا اتق الله ولا تفُض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وأنا أشد ما أكون حباً لها، اللهم إن كنتَ تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه، فتدحرجت الصخرة)[105].

وواضح من الحديث أن هذه المرأة لم يكن عندها أي رغبة في الانحراف بدليل أنها رفضت في المرة الأولى، وذكَّرته بتقوى الله في المرة الثانية، وهذا معناه أن ذهابها إليه كان قهراً بسبب الاحتياج، وهذه هي حقيقة الخطر عند احتياج المرأة، إنها تخضع وتضعف أمام

[104] البخاري في (الأنبياء) (396 - 6/397) من حديث ابن عباس.

[105] البخاري في الإجارة لما (4/449)، ومسلم في (الذكر والدعاء) رقم (2743) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الانحراف دون أدنى رغبة فيه، ويترتب على هذا أن تمارس المرأة الانحراف بغير ضعف أمام شهوتها الجنسية بل بالضعف أمام احتياجها المادي.

ويذكرنا هذا الحديث بقيمة قول عمر: (لئن عشت في العام المقبل لأجعلنَّ لأرامل الكوفة جعلاً) لنعلم أن الذي كان يريده عمر هو تفادي خطر الاحتياج عند المرأة في مكان أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن منه ستخرج الفتن[106]، ومن أجل خطورة احتياج المرأة نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم يجيز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها دون علمه وبقدر حاجتها إذا كان بخيلاً، فقد جاءته هند – زوجة أبي سفيان – وقالت: إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل يجوز لي أن آخُذ من ماله دون علمه؟ فأذن لها النبي بقدر حاجتها)[107].

والواقع أن المنع من الأهل هو في الحقيقة اغتصاب لا يرضاه الله، إذ إن الزوج عندما يُرزق إنما يرزق أهله، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم)[108].

ومن هنا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (دينارٍ أنفقتهَ في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك)[109]، ولعل الصورة التي التقطها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك لك بها صدقة)[110] – توضح لنا كيف تكون الكرامة والوجدان في سد احتياج المرأة.

والحقيقة أن سعي الزوج لسد احتياج الزوجة يمثل عند المرأة دليل اهتمام بها، وهذا الجانب النفسي لا يقل شأناً عن الجانب المادي بل يزيد، وهذا الجانب يتحقق عند المرأة إذا أحست أن الزوج يبلغ أقصى ما في وسعه من أجلها، أو الاعتذار الكريم عن تحقيق رغبة لها لم يتمكن من تحقيقها، وهذا هو المقصود بالقول الميسور في قول الله عز وجل:

---

[106] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الفتن ستخرج من المشرق وأشار إلى الكوفة وقال: منها يخرج قرن الشيطان) أخرجه البخاري (13/45) في الفتن، ومسلم (2905) عن ابن عمر.

[107] متفق عليه: البخاري (9/507)، ومسلم رقم (1714).

[108] أخرجه البخاري في الجهاد مما (6/88) بلفظ (هل تنصرون إلا بضعفائكم) لا من حديث سعد بن أبي وقاص.

[109] رواه مسلم في الزكاة 39، أحمد (472/2، 73ح) ووردت رواية أخرى لهذا الحديث في مسلم في (الزكاة) 358 والترمذي في البر 42 وابن ماجه في الجهاد وأحمد (79/9).

[110] البخاري في (الوصايا) (5/363) باب (2) من حديث سعد بن أبي وقاص وأصله في مسلم في الوصية (1628) من حديث سعد أيضاً.

{وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} (الإسراء: 28)، أي إذا سالك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة، {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله: {فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا} بالوعد مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد[111].

وبذلك يمكن الاهتداء بهذا التوجيه القرآني في التعامل مع الزوجة للاستفادة من حكمته.

وعندما تكون للزوجة رغبة نفسية ليس لها جانب مادي فيجب عدم الاستهانة بالاستجابة إليها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد في يوم عيد، فقال: يا حُميراء (تصغير الحمراء يريد البيضاء) أتحبين أن تنظري إليهم؟ فقلت: نعم، فأقامني وراءه، فطأطأ إلى منكبيه، لأنظر إليهم، فوضعت ذقني على عاتقه، وأسندت وجهي إلى خده، فنظرت من فوق منكبيه – وفي رواية من أذنه وعاتقه – وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة حتى شبعت)[112]، وبذلك نخرج بقاعدة مهمة في الاستجابة لرغبة الزوجة، فإذا كانت الرغبة مادية فيجب أن يكون تحقيقها بقدر الإشباع، وبهذه القاعدة لا نتجاوز الرغبات المادية الفعلية، ولا نقصر في تحقيقها نفسياً، وهذا هو عين الرضا.

ومن أهم الأمور التي تحقق للمرأة إحساسها مع زوجها ورضاها عن بيتها هو ألا ترى زوجها يعيبها في تصرفاتها ووظيفتها كزوجة، وعلي هذا يجب على كل زوج أن يتخلّق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الناحية، إذ تقول السيدة عائشة عن الطعام: (ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه)[113].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فأخذ يقول: (نِعم الأدم الخل)[114].

---

[111] ابن كثير ص 65: 67.

[112] البخاري في (العيدين)، ومسلم في (الصلاة)، (892) من حديث عائشة رضي الله عنها.

[113] متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (9/547)، ومسلم (2064) ن عن أبي هريرة.

[114] أخرجه مسلم في (2051) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وهو مما انفرد به دون البخاري

وكذلك لا ترى الزوجة زوجها يعيبها في شكلها ومظهرها، ولذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقبِّح الرجل زوجته فيقول لها: قبَّحك الله.

كما يجب على الرجل أن يستجيب لطبيعة المرأة التي لا يمكن أن تتغير فيها مثل طبيعة حب الحديث التي تعتبر من أبرز طبائع المرأة، فيتحتم على الرجل سماع حديث زوجته، وأن يُظهر تجاوباً واهتماماً، وهذا حديث لعائشة سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها استجابة لطبيعتها: (حدثنا هشام بن عروة عن عبد الله بن عروة عن عائشة قالت: جلست إحدى عشرة امرأة تعاهدون وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقي.

قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره.

قالت الثالثة: زوجي العشنق إن أنطق أطلق وإن أسكت أعلق.

قالت الرابعة: زوجي كليل تِهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد.

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف وإن شرب اشتف وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث.

قالت السابعة: زوجي غياياء طباقاء، كل داء له داء شجّك أو فلّك أو جمع كلالك.

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب والمس مس أرنب.

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد طويل النجاد عظيم الرماد قريب البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟ أناس من حلي أذني وملأ من شحم عضدي وبجحني فبجحت إليّ نفسي ووجداني في أهل غنيمة بشق فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودانس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح وأرقد فأتصبح وأشرب فأتقمح.

أم أبي زرع؟ عكومها رداح وبيتها فساح.

ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كسل شبطه ويشبعه ذراع الجفرة.

وبنت أبي زرع فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها وغيظ جارتها.

جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثاً تبثيثاً ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، قالت خرج أبو زرع فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقني ونكحها فنكحت بعده رجلاً سرياً ركب شرياً وأخذ خطياً أو ضحياً، وأراح علي نعماً ثرياً وأعطاني من كل رائحة زوجاً وقال ك كلي أم زرع وميري أهلك، قلت فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[115]، وعلي الرغم من أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن تتسع فعلاً لسماع هذا الحديث إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمعه مع أن الله - تبارك وتعالي - أمر المؤمنين أن يقدموا صدقة إذا أراد واحد منهم أن يتناجى مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر المؤمنين كذلك ألا ينتظروا في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يطيب الطعام: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} (الأحزاب: 53).

وذلك لأن وقت الرسول صلى الله عليه وسلم زمن نبوة، ومع ذلك سمع الرسول حديث عائشة وعلق تعليقاً لا يزيد معناه عن محاولته لأن تشعر أنه كان معها في حديثها، وهو قوله: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع).

وبعد ذلك يبقى على الزوجة أن تسعى لإرضاء زوجها، وهذا السعي له سبيل أساسي هو طاعة الزوج وتحقيق رغباته. وسنعطي أمثلة لزوجات فهمت كل واحدة منهن كيف يكون الإحساس برغبة الزوج ورضاه، وكيف كان تحقيق رغبة الزوج عندهن أقوى من إحساسهن بأنفسهن وطبيعتهن، ولم يكن مجرد أداء واجب من الواجبات عليهن:

[115] شرح هذا الحديث ملحق بآخر الكتاب.

- امرأة إبراهيم تقدر رغبة زوجها الطبيعية في أن يخلف ولداً فتزوجه هاجر متنازلة عن رغبتها الطبيعية كزوجة في أن يكون زوجها لها وحدها، وحتى عندما رُزق إبراهيم واشتعلت الغيرة في نفسها لم تطلب من إبراهيم ترْكها بل طلبت التوفيق بين ضرورة تحقيق رغبة الزوج، وبين معالجة الغيرة فطلبت منه أن يبعد هاجر وابنها عنها.

- وسودة بنت زمعة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم تتنازل بحقها وليلتها لعائشة لما رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها.

- وهذه أم سليم تكبت في نفسها حزنها على ابنها عندما مات وتهيئ نفسها لزوجها فيقضي حاجته منها في ليلة طيبة ولا تخبره بوفاة ابنها إلا في الصباح.

فكانت رغبة إبراهيم في الأولاد عند سارة أقوى من رغبة سارة كزوجة في الانفراد به كزوج.

وكانت رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم عند سودة بنت زمعة أقوى من حقها في المعاشرة، ورغبة زوج أم سليم أقوى من الأمومة والحزن على الولد.

أدب النوم واليقظة

إذا كان من المعروف أن من السنة أن تقول الزوجة لزوجها قبل نومها هل لك بي حاجة، فيجب أن يكون من المعروف أيضاً معني أن تكون الزوجة نائمة.

وبيان هذا المعنى هو أن استئذان الزوجة في النوم إنما هو مسئولية الزوج عن هذا النوم، لأنها نامت بإذنه فلابد أن يوفي حق هذا الاستئذان، ومن هذا المعنى أن استيفاء حق استئذانها يتضمن حقيقة كرامتها عند زوجها، فالزوجة عندما تنام تشعر بكرامة نفسية ضخمة إذا حرص زوجها على حالة نومها، وليس أدل على أن مراعاة النوم تكريم للنائم من حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار[116].

وإذا كان الاستئذان في الفراش من أجل قضاء حاجة الزوج من زوجته فإن من أجمل صور الاستئذان خارج الفراش هو أن تنتظره – فلا تنام – قدر استطاعتها – حتى يجيء إلى البيت – فيجدها في انتظاره.

ولكي يكون النوم زمناً جميلاً في العلاقة الزوجية، فإن كلمة طيبة قبل النوم تعطي للنوم حلاوة – يجدها الزوجان معهما حتى الاستيقاظ.

لأن الإنسان يستيقظ على ما نام عليه.

فيسمي الزوجان ويصبحان يحلقان في جو السعادة كالطير، ولكن الطير لا ينسى التسبيح.

فلا يبقى بعد هذه الكلمة الطيبة – التي تعطي للنوم حلاوة – إلا الأذكار التي تعطي صاحبها حفظاً في الدنيا وجنة في الآخرة.

وحقيقة تكريم الزوجة – بمراعاة نومها – الواردة في حديث استئذان الزوجين عند النوم، وحديث الغار الوارد في نوم الأبوين، ليس هما النصوص الشرعية الوحيدة المثبتة لهذه الحقيقة... ولكن المسألة متفق عليها بين أعظم رسولين.

– جبريل رسول الوحي عليه السلام.

– ومحمد رسول العالمين عليه الصلاة والسلام.

[116] كما جاء في الصحيح

قالت عائشة: (ألا أحدثكم عني وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلنا بلى. قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً وانتعل رويدا وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويدا فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت فأحضر فأحضرت فسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال مالك يا عائش حشيا رابية قالت قلت لا شيء قال لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير قالت قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي فأخبرته قال فأنت السواد الذي رأيت أمامي قلت نعم فلهدني في صدري لهدة أوجعتني ثم قال أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله قالت مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم قال فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك فأجبته فأخفيته منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فقال إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت قلت كيف أقول لهم يا رسول الله قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون).

ولعلنا نلاحظ من الحديث كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتصرف رويداً، وكيف أن جبريل ينادي رسول الله دون أن يسمع عائشة، وهذا معنى فناداني فأخفاه منك.

وكيف أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب، فأجبته فأخفيته منك.

وفي المقابل فإن هذه المعاني الجميلة هي التي تفسر أثر الهجر في المضجع، ليكون المعنى حينئذ هو عدم الإحساس بالوجود الذي كانت أجمل لحظاته هي المضجع.

فالاضطجاع هو حالة ما قبل النوم بكل ما فيها من سنن وأحكام، وبكل ما فيها أيضاً من مودة ورحمة، وبكل ما فيها كذلك من راحة ومتعة.

وبالعودة إلى آداب النوم واليقظة، فإن كل ما سبق لا ينطبق على حالتين للزوجات:

الزوجة التي تزوجت لتنام، ولا يراها زوجها في يقظة إلا نادراً حتى تجعله عندما يراها مستيقظة يظن أنها رؤية مناميه.

والزوجة التي تزوجت لتجعل زوجها لا ينام، التي تحمل عليه بدلاً من أن تحمل عنه، وتجمع له الهم بدلاً من أن ترفع عنه.

فيجب أن يكون نوم الزوجة في بيت زوجها قدر حاجتها حتى لا تنام إلا وقد غلبها النوم على اليقظة.

ولذلك تقول إحدى المقربات لعائشة رضي الله عنها في وصفها في بيتها: هي جارية تنام على العجين.

أي يغلبها النوم بعد التعب من العجين حتى لا تتمكن من تغطيته من شدة الإرهاق، وهكذا يكون طعم نوم الزوجات، ولا يكون هذا إلا بعد إرهاق الواجبات.

ونواصل تحديد أسباب الحماية الأساسية للبيت من خلال النصوص مباشرة في صورة توجيهات محددة لتستقر في الأذهان ويسهل التطبيق:

(1)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيراً، فإهن خُلقن من ضلع اعوج وإن أعوج الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وكسر المرأة طلاقها)[117]، في هذا الحديث الوصية بمراعاة الاعوجاج في خلق النساء حتى لا يكون الاصطدام في التعامل والمعاشرة، ومراعاة الاعوجاج يجب أن يكون بحدود، حتى لا يكون النشوز أو المعصية نتيجة هذه المراعاة، وأهم هذه الحدود ألا مراعاة في معصية شرعية، لأن الشريعة بذاهّا هي التي تحقق تلك المراعاة، ولا يبقى غير الالتزام الكامل بأحكامها، ولا مراعاة في معصية الزوج، لأن الأمر بطاعة الزوج من أحكام تلك الشريعة ومن الأفضل أن نذكر مثالاً لهذه المراعاة المقصود:

كان النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة السيدة عائشة فبعثت السيدة زينب بإناء فيه بعض التمر ليأكله النبي فغارت عائشة، وغضبت، وأخذت الإناء وألقته على الأرض أمام النبي صلى الله عليه وسلم فماذا كان من النبي؟ ضحك لغيرة عائشة وهذه كانت المراعاة لطبيعة الزوجة، ولكنه أمرها أن تجمع التمر وتغسله وتأتي بإناء من عندها لتعطيه لزينب بدلاً من الذي كسرته فلم تتمادى عائشة في غضبها، بل أطاعت النبي صلى الله

[117] متفق عليه: البخاري في (النكاح) (254 - 9/255) ن ومسلم رقم (2448) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عليه وسلم فيما أمر به، فجمعت التمر وغسلته وأعطت الخادم إناءاً بدل الذي كسرته[118]، ولم تتجاوز بغضبها حدود الالتزام بالحق.

ولأجل الاعوجاج الطبيعي في خلقة المرأة فإن النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً يهييئ إحساناً بالمرأة، بحيث نرى فيها المحاسن واضحة، ويصغر في نظرنا السيئ منها، فيقول رسول صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك (يبغض) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلقاً رضي آخر)[119].

والحديث يذكر الزوجة بصفة الإيمان لكي يقوي إحساسنا بإيمانها على إحساسنا بعوجها، وتلك هي روعة المعالجة، ثم يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم دعاءاً بأن يحقق الله لنا خير المرأة، يقول فيه: (إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليأخذ بناصيتها وليسمَّ الله عز وجل وليدعُ بالبركة: اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه)[120].

(2)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤم الرجل الرجل في بيته إلا من بعد إذنه، ولا يجلس على تكرمته إلا من بعد إذنه)[121]، لأن الإمامة شكل من أشكال القيادة التي لا يجب أن يمارسها غير الزوج في بيته وسلطانه إلا بالإذن الذي يؤكد للزوج هذه السلطة وتلك القيادة إذا مارسها أحد غيره.

ولا يمكن تحقيق مضمون هذا الحكم في أي عمل يؤثر في نظرة الزوجة إلى زوجها غير الصلاة، مثل المناقشات الفكرية التي تحب الزوجة كذلك أن يكون لزوجها فيها وضع الريادة، وبالموازنة بين حق العم الذي يقتضي الدفاع عن الحق بصرف النظر عن الرجال

---

[118] البخاري في (الأنبياء) (312 - 6/313)، ومسلم رقم (1795) ن من حديث عائشة - رضي الله عنها - ، ولذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله). روي في (النكاح) (9/320) عن أنس وسمي النسائي في روايته (7/70) التي أرسلت الإناء أم سلمة وفي رواية أخرى (7/71) إنها. صفية رضي الله عنهن.

[119] أخرجه مسلم في (1469) من حديث أبي هريرة. رضي الله عنه.

[120] أخرجه أبو داود في (النكاح) لا (6/196)، والحاكم (185 - 2/186) والنسائي في اليوم والليلة (240)، و (263) وابن ماجه (1918) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وسنده حسن.

[121] أخرجه الترمذي في (الإمامة) (2772)، عن أبي مسعود الأنصاري، وقال حسن صحيح وهو كما قال، وأخرجه أحمد (4/118) وابن ماجه (980).

وحق الزوجة في شعورها تجاه زوجها يصير من الأولى إبعاد النساء عن واقع الاحتكاكات الفكرية بين الرجال.

ومن الأحاديث التي تؤكد سلطان الرجل في بيته على زوجته قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يُسأل الرجل فيم ضرب زوجته)[122]، لن هذا السؤال تدخُّل مرفوض في قوامة الزوج على زوجته. ومن صور التدخل في سلطان الرجل أن يؤذن لأحد في بيته وهو كاره له، ولهذا جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم الإذن لمن يكره الزوج من جوهر حقوق الزوج على الزوجة، إذ يقول: (فأما حقكم على نسائكم فلا يوطِئْنَ فراشكم من تكرهون، ولا يؤذن في بيوتكم لمن تكرهون)[123]. وفي رواية البخاري: (لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه)[124].

(3)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل بيتك إلا مؤمن ولا يأكل طعامك إلا تقي)[125]، فيحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يدخل بين الإنسان إلا مؤمن، لأن المؤمن هو الذي سيقدر حرمة البيت، وسيكون شريف الجلسة، وسيلتزم بآداب الضيافة، أما الأكل فيجب أن يكون فيه أشد الحرص، لأن معني أن يأكل رجل من طعام الزوجة وهو غير تقي، فإن هذا الإطعام سيكون خطيراً، لأن المؤاكلة تقرب بين النفوس بالطبيعة الإنسانية، فلا بد أن تكون هنا التقوى التي تجعل هذا التقارب النفسي طاهراً نقياً. ولهذا ربط الرسول بين ضرورة الإيمان ودخول البيت، أما الطعام فقد ربطه بضرورة التقوى.

[122] أخرجه أبو داود (185/ 6)، والنسائي في العشرة رقم (286) وابن ماجه (1986)، وأحمد (1/20) من طريق داود بن عبد الله الأودي عن عبد الرحمن المسلي.

[123] أخرجه الترمذي، (3087)، وابن ماجه رقم (1851) في النكاح عن عمرو بن الأحوص وسنده صحيح.

[124] أخرجه البخاري في (النكاح) (9/293) عن أبي هريرة.

[125] أخرجه الطبراني في الأمر الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: (لا تدخل بيتك إلا تقياً، ولا قول معروفك إلا مؤمناً)، مجمع (8/183) قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم والشطر الآخر من الحديث: أخرجه أحمد (3/38)، وأبو داود (179 /13) والترمذي (2395)، وغيرهم من حديث أبي سعيد وسنده صحيح.

(**4**)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، كأنه ينظر إليها)[126]. ومن أحكام الحديث النهي عن وصف المرأة امرأة أجنبية لزوجها، والنهي عن وصف الرجل الرجل الأجنبي لزوجته كأنها تراه.

فقد يكون الإنسان حريصاً على حماية بيته من الغرباء، ولكنه لا يحميه من نفسه، فيصف الرجل الرجل لزوجته كأنها تراه، على الرغم من أن الوصف لا يقل خطراً عن إدخال رجل غريب في حياة الزوجة، إذ إن الوصف له أثر الرؤية في كيان الإنسان باعتبار طبيعة التخيل، بل إن الوصف يزيد خطراً عن الرؤية بتحقيق الشوق إلى رؤية الموصوف، وعندما يكون الوصف من الزوج نفسه تشعر المرأة بأن لها حق الاستماع لصفات الرجل الذي يصفه زوجها والاهتمام بأمره والسؤال عنه باعتبار أن المتحدث هو الزوج.

كما أن المرأة تملك قدرة على المقارنة بين زوجها والرجل الموصوف، وتنتهي تلك المقارنة في إحساس الزوجة غالباً لصالح الرجل الغريب، وكل هذا يحدث أيضاً إذا وصفت المرأة المرأة لزوجها كأنه يراها.

(**5**)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والدخول على النساء)[127] فقال رجل: أفرأيت الحمو؟ فقال: الحمو الموت)، ففي هذا الحديث يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم مشكلة مهمة، وهي دخول الرجل من غير المحارم على المرأة في غيبة الزوج، وهذا الحديث يحدد القضية بأسلوب خطير، فهو يتكلم عن الحمو وهو أخو الزوج الذي يعتبر أقرب الناس إلى الزوج، ولكنه يقول: (الحمو الموت) أي الهلاك والخراب.

والواقع أن عدم دخول أحد – من غير المحارم – على الزوجة في غيبة الزوج هو الضمان الأول لحماية الأعراض، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دفاعه عن السيدة عائشة رضي الله عنها عندما اتهمها المنافقون بالإفك: (يا معشر المسلمين! من

[126] أخرجه البخاري في (النكاح) (9/ 338) من حديث ابن مسعود مرفوعاً: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) وهو عند أبي داود (6/187) والترمذي رقم (2790).

[127] متفق عليه: البخاري في (النكاح) (9/330) ومسلم فيه أيضاً رقم (2172) من حديث عقبة ابن عامر.

يعذرني في رجل بلغني أذاه أهلي، فو الله ما علمت في أهلي إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي)[128].

(6)

قال رسول صلى الله عليه وسلم: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها)[129].

في هذا الحديث يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سبب من أسباب الخطر الذي قل أن تتحقق منه النجاة، وهو محاولة امرأة غريبة أن تأخذ زوجاً من زوجته، ولذا يجب أن تكون الزوجة حريصة على ألا تُدخل في حياة زوجها أي امرأة أخرى، لكي لا تسعي هذه الأخرى إلى الاستحواذ عليه وتحاول التأثير فيه، والغيرة غير كافية لتحقيق هذا الأمر، لأن المرأة قد تغير على زوجها، ولكنها قد تكون غبية لا تفهم، أو غافلة لا تدرك، والنساء على قدر كبير من المهارة في هذه النواحي، فأسهل ما يكون أن تغلب امرأة زوجة على زوجها، ولم يكن الأمر إلى الزوجة لأن الأقوى هنا هو المرأة الغريبة، باعتبار أن العلاقة الزوجية واستمرارها قد يبلد إحساس الزوج نحو زوجته، ولكن احساساته لن تكون بليدة مع الغريبة، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تطلب المرأة طلاق أختها لتكفي إناءها)، لأن المرأة الغريبة هي مصدر الخطر فعلاً.

(7)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا خير في جمع النساء إلا لصلاة أو قتيل)، لأن الصلاة لا يجوز معها الكلام، ولأن القتيل أمر يؤكد فيه الفجيعة المانعة من الكلام، إذ قد يكون ميتاً مسناً، لا فجيعة في موته، فتستغل النساء جمعهن في الكلام.

ولأن النساء يتأثرن بأخلاق بعضهن البعض كان التحذير من جمعهن بصفة دائمة، وليس أدل على هذا التأثر من قول عمر)[130]: (كنا نغلب نساءنا، فلما جئنا إلى المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم)، يقصد أن نساء المهاجرين تأثرن بنساء الأنصار في غلبة الرجال، وكانت تلك شكوى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[128] البخاري (5/692) وفي التفسير، ومسلم أيضاً (2770).
[129] متفق عليه: البخاري (353 /4) ومسلم رقم (1515) بعض حديث أبي هريرة.
[130] هو قطعة من حديث (الإيلاء) الذي أخرجه البخاري ومسلم وسبق تخريجه عند قول عمر لابنته: لا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم منك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(8)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخلت بيتك فأغلقْ بابك، وأكفئْ إناءك، وأطفئ سراجك، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً)[131]، ولقد وضح في الحديث أن فائدة إغلاق الباب هي عدم دخول الشيطان، ويضاف إلى هذا الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر:

(إن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)[132]، وبذلك يصبح البيت في حرز من الشيطان مع قولك بسم الله عند الدخول وعند الأكل، كما ورد في حديث: (إذا دخلت بيتك)، وأما إكفاء الإناء فقد جاء سببه في حديث آخر، ونصه: (أن مرضاً يترل من السماء كل عام فيصيب كل إناء مكشوف)[133]، وحكمة إطفاء السراج جاء ت في رواية أخرى: (حتى لا تأتي الفأرة فتجر النار وتحرق البيت)[134]، ولقد أوضحت هذه الوصايا الاهتمام البالغ من الرسول صلى الله عليه وسلم بأسباب حماية البيت.

(9)

خطر الأضرار والأحداث العارضة، وفيه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قال العبد: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم – ثلاث مرات – أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق – ثلاث مرات – فإنه لا يضره شيء[135]، وذلك كل صباح وكل مساء.

---

[131] متفق عليه: البخاري (6/336) ومسلم ن (2012) عن جابر.

[132] أخرجه مسلم (780) من حديث أبي هريرة.

[133] أخرجه مسلم في (الأشربة) (2014)، عن جابر رضي الله عنه.

[134] عند البخاري (11/85) عن جابر أيضاً.

[135] حديث أبان بن عثمان عن أبيه 0 من قال حين يصبح: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه... الحديث) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم (3388) وابن ماجه رقم (3869)! قال الترمذي حسن صحيح غريب، وهو صحيح كما قال. وقد ورد حديث آخر، حديث أبي هريرة قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم: (أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك) أخرجه مسلم، واللفظ له رقم (2709)، وليس فيه ذكر: (ثلاث مرات)، إنما ذكرها الترمذي (10/66) تحفة، وطرفه: (من قال حين يمسي ثلاث مرات أعوذ... الحديث).

وقد ورد في هذا الحديث[136] أن رجلاً صحابياً قيل له أدركْ بيتك فقد احترق، فقال: لا، ما ينبغي له أن يحترق وقد قلت... وذكر الدعاء، ثم قال: وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يقولهن – يعني هذه الكلمات – لا يضره شيء في يومه).

وفي النهاية نقول إنه على الرغم من الأخْذ بكل أسباب الحماية للبيت والزوجة تبقي في نفس الزوج رغبة في المزيد من الإحساس بالأمان على زوجته وعرضه، ولكن هذا الإحساس لا يمكن أن يكتمل عند الزوج إلا من خلال استقرار عدة حقائق في ضميره وأهمها:

أن العفاف قدرّ إلهي يتحقق في الزوجة بعلم الله لها، وعدله فيها، والدليل في قصة هجرة سيدنا إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر – التي مر ذكرها[137]، فقد كان الملك يأخذ كل امرأة جميلة غصباً، فإن كان معها أخوها تركه، وإن كان معها زوجها قتله، فعلم هذا الملك بقدوم إبراهيم وسارة، فطلبها، فكان موقف إبراهيم أن قال لها: أخبريه أني أخوك، وهذا بالطبع فيه نجاة لإبراهيم. ولكن أين التفكير في نجاة الزوجة؟ هذا ما تركه إبراهيم للزوجة نفسها، فوقفت أمام هذا الملك الماجن تدعوا الله: (اللهم إن كنت تعلم أني قد أحصنت فرجي إلا على زوجي، فأبعد عني هذا الشيطان)، فخسف الله به الأرض واستجاب لها، ومن الدعاء والاستجابة يتبين كيف أن العفاف قدر تحقق لزوجة إبراهيم بأسباب من عندها، وهي إحصان فرجها إلا على زوجها، ولما كانت كذلك كتب الله لها النجاة والعفاف وتأكدت بذلك مسئولية المرأة الحقيقية عن نفسها وعفافها.

ونذكّر بقصة المرأة – سابقة الذكر – التي احتاجت وأنجاها الله[138]، كما أن عبودية المرأة وخشيتها لله هي الحماية الأصلية لها من الانحراف، فإذا أحست الزوجة أنها

[136] والمقصود هو قصة أبي الدرداء التي أخرجها ابن السني في (عمل اليوم والليلة) رقم (56) ومن طريق الأغلب بن تميم عن الحجاج بن القرافصة عن طلق بن حبيب قال: (جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء فقال: يا أبا الدرداء، قد احترق بيتك. قال: ما احترق، لم يكن الله عز وجل – ليفعل ذلك لكلمات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم من قالهن أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالهن أخر النهار لم تصبه مصيبة حتى يصبح. اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أعلم أن الله علي كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي علي صراط مستقيم). وزاد في رواية أخرى عند ابن السني أيضاً (57). (وقد قلتها اليوم انهضوا بنا، فقام وقاموا معه فانتهوا إلى داره وقد احترق ما حولها، ولم يصبه شيء.

[137] سبق تخريجها في أوائل الكتاب.

[138] قصة الثلاثة الذين دخلوا الكهف وتوسلوا بأعمالهم الصالحة سبق تخريجها.

قبل أن تكون زوجة لرجل فهي أمة لله، وانحرافها قبل أن يكون خيانة للزوج فهو كبيرة عند الله، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (والله أغير منا)[139]، وقال: (وما أحد أغير من الله ومن أجل ذلك أنزل الحدود[140]، وهذا قيمته أن تشعر المرأة بغيرة الله عليها، ونذكّر هنا بقول المرأة التي سمعها عمر تقول: (فوالله لولا الله أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه)[141].

وليس قدر العفاف هو قدر النجاة من الانحراف فقط، ولكنه أيضاً قدر النجاة من الاتهام بالانحراف. وهو قدر البراءة الذي يحقق النجاة أمام الناس بعد قدر العفاف الذي يحقق النجاة أمام الله.

و عندما نذكر الدليل على قدر البراءة فبالطبع ستكون قصة مريم ابنة عمران التي أنطق الله من أجل براءتها عيسي وهو في المهد، {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} (مريم 30 - 33).

ولقد رأينا في قصة جريج كيف أن الغلام نطق في المهد أيضاً عندما ضربه جريج على صدره وقال: منَ أبوك؟ قال: أنا ابن الراعي[142].

ومن هنا كان النبي صلى الله عليه وسلم واثقاً بأن الله سيبرئ عائشة.

فقال لها: (يا عائشة، إن كنت بريئة فسيبرئك الله)[143].

وكما أن قدر العفاف له أسباب فإن قدر البراءة له أسباب أيضاً.

وأهمها: البعد بالنفس عن الشبهات.

---

[139] البخاري في (النكاح) (9/319) ومسلم رقم (1499)، من حديث سعد بن عبادة.

[140] البخاري في (النكاح) (9/319) من حديث ابن مسعود، ومسلم من حديث عبادة (1499).

[141] أخرجه البيهقي في السنن (9/29) من طريق مالك عن ابن دينار عن ابن عمر خرج عمر من الليل فسمع امرأة تقول: تطاول هذا الليل واسودت جوانبه وأرقني أن لا حبيب ألاعبه فقال لحفصة كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أو أربعة أشهر، فقال عمر: (لا أحبس الجيش أكثر من هذا). وذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة بقرة (227)، (1/447). وعزاه للموطأ وزاد: فوالله لولا أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه وسند الموطأ جيد قوي.

[142] قصة جريج سبق تخريجها، وأنها في صحيح مسلم انظر (ص: 10، 11).

[143] سبق تخريجه قصة الإفك (ص: 79، 85) أنظرها هناك.

والدليل هو تصرف النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يسير مع زوجته صفية بالليل فرآه اثنان من الصحابة، فقال لهما: (علي رسْلكما، إنها صفية زوجتي. فقالوا: سبحان الله! يا رسول الله! قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم ومجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئاً)[144].

وبهذا التصور يجب أن نكل أمر الزوجة إلى الله، سواء من ناحية نجاتها من الانحراف الفعلي، أو نجاتها من الاتهام بالانحراف أمام الناس.

وأن نتوكل على الله مع الأخذ بأسباب الحماية، إذ إن صون العرض في الواقع أكبر من مجرد الأخذ بأي سبب، ومن الخطأ الاعتماد في هذا على أي سبب دون التوكل على الله، فإن ظن الإنسان أن حب زوجته له يحميها من الانحراف فإن القلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإن ظن في نفسه الجمال أو الغني أو القوة فهناك من هو أجمل منه وأغنى منه وأقوى منه. ومن هذا تأتي ضرورة التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب صلاحاً للبال وراحة للضمير.

وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام يقول: (اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل)[145]. وبذلك يستخلف النبي صلى الله عليه وسلم الله في أهله، وهكذا يجب أن نفعل.

---

[144] متفق عليه: البخاري في (الاعتكاف) (4/278)، رقم (2175) من حديث صفية.

[145] سبق تخريجه – قريباً – وهو صحيح.

خطر البيت

وبعد تكوين البيت وحمايته بقي أمر أخير وهو أن نحمي أنفسنا من أخطار البيت، وليس البيت خطراً إلا على الدعاة، ولهذا كان لابد أن يكون ارتباط الداعية ببيته بأصول تحميه من الرضا بمسكنه ومعيشته دون الجهاد في سبيل الله، فيقع في التحذير الذي جاء في قول الله: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: 24)، وكذلك التحذير من عداء الزوجة، ونصه قول الله في سورة التغابن: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} (التغابن: 14)، ومعنى عداء الزوجة والأولاد أن يكونوا سبباً في ركون الإنسان إليهم والقعود عن الجهاد. كما أن هناك تحذيراً تنبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى محاولة الشيطان في التصاق الإنسان ببيته وربطه بأهله، والحديث يقول: (إذا خرج الإنسان للجهاد جلس له الشيطان على قارعة الطريق يقول له: تُنكح الزوجة، فيمضي فيقول له: يُيتِّم الولد، فيمضي، فيقول له: يقسم المال، فيمضي)[146].

ولهذا فإن القرآن يعتبر أن الذي يخرج من بيته يكون قد أتم معنى الخروج في سبيل الله، ولو لم يحقق هدف الخروج بدليل قول الله عن الهجرة: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (النساء: 100). وكذلك فإن القدرة على الخروج من البيت تعادل تماماً القدرة على التضحية بالنفس، بدليل قول الله: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} (النساء: 66)، ومن أجل ذلك فإن القرآن يعالج الإحساس بالجبن عند الإنسان بمعالجة إحساسه ببيته على أنه ليس هو الشيء الذي سيحميه من الموت أو القتل: {قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} (عمران: 154).

ولهذا كان لابد من تحديد الأصول التي يعيش بها الداعية في مسكنه، ويتعامل بها مع زوجته دون أن ينسي أخرته ودعوته. وأول هذه الأصول هي ممارسة إرادة الخروج في سبيل الله، ولو في أيسر الصور والمهام مثلما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى الصلاة كما تقول عائشة: (كان رسول الله في خدمة أهله فإذا سمع المؤذن قام

---

[146] حسن: أخرجه النسائي في (الجهاد) (21، 6/22) احمد (3/483) وابن حبان (7/57) من حديث سيرة بن أبي فاكه، وطرقه: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقة، قعد في طريق الإسلام...).

كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه)[147]، هذا إذا كان مستيقظاً أما إذا كان نائماً (قام وكأنه في فزع).

وهذا السلوك هو الذي يحقق إرادة الخروج، لأن التأخير ولو لحظة عن الخروج عند الضرورة هو الذي يسبب القعود، وهذا موقف وضحت فيه آثار التأخير عن الخروج، وهو موقف كعب ابن مالك، حيث لم يكن ينقصه نية الخروج ولا إمكانياته، لكنه وهو واثق بإمكانية اللحاق بالجيش لم يتمكن من ذلك وكان من المخلفين، وعندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه في الميدان كان رد أحد الصحابة يوضح كيف كان الانتباه إلى هذا الأمر، وكيف كانت دقه التصور عنه، إذ قال: (يا رسول الله، شغله برديه، والنظر في عطفيه)[148]، فإن نظرة من الإنسان إلى حياته بإعجاب أو لحظه أمل في الدنيا من الممكن أن تسبب قعوده، ولذلك كان الأمر بأن يعتزل كعب امرأته تربية له، إما الصاحبيان اللذان تخلفا مع كعب طلباً من رسول الله بقاء زوجاتهما في البيت لخدمتهما فأذن لهما دون معاشرتهن.

وهذا يعني أن مشاعر العلاقة الاجتماعية الكامنة في كيان الإنسان بطبعه الاجتماعي لابد أن تخضع لمقتضيات الدعوة.

فعندما كانت المقاطعة في قصة كعب أمراً واجباً كان توجيه تلك المشاعر نحو الزوجة أمراً ضرورياً كمقدمة للمقاطعة الكاملة.

ولكن عندما يكون قيام العلاقة الاجتماعية بين المسلم والمسلمين في الوضع الطبيعي أمراً واجباً – كضرورة للدعوة – يكون الحذر من التقصير في قيام تلك العلاقة الاجتماعية الواجبة، وتوجيه تلك المشاعر نحو العلاقة الزوجية، لأن هذا ينشئ انفصالاً بين الفرد والجماعة ويسبب الركون إلى الزوجة.

وهذا موقف آخر يعطينا نموذجاً لإرادة الخروج والحذر من التأخر، وهو موقف (حنظلة بن أبي عامر) الذي يسمع نداء الجهاد (أن يا خيل الله اركبي)، وهو يغتسل من الجنابة فلا يتم الاغتسال ويخرج ونتتبعه من لحظة خروجه، فتراه يصل إلى قمة التضحية، حيث استُشهد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد رأيت الملائكة تغسله)[149].

---

[147] أخرجه البخاري في (النفقات) (9/507) دون الزيادة: (كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه).

[148] قصة كعب أخرجها البخاري (8/113) في المغازي، ومسلم رقم (2769) من حديث كعب بن مالك نفسه.

[149] أخرجه الحاكم وصححه علي شرط مسلم.

وتبرز حقيقة عظيمة من موقف حنظلة وهي أن تحقُّق قمة التضحية لن يكون إلا من منطلق التجرد الكامل.

أما في لحظات وجود الإنسان في بيته فيجب أن يكون منشغلاً عقلاً ووجداناً بدعوته، وما حدث من عمر بن الخطاب يوضح هذه الضرورة، فقد كان لعمر بن الخطاب جار يتناوب معه النزول إلى المدينة والإتيان بأخبار الدعوة، حيث كان عمر يسكن أعالي المدينة مع هذا الجار فحدثت المفارقة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين نسائه، فجاء الرجل إلى عمر، وناداه من خلف الباب: أنْ يا عمر لقد حدث شيء جلل، فقال عمر: أجاءت غسان؟ – وغسان هذه كانت قبيلة متحالفة مع الروم ضد رسول الله – فقال الرجل: لا)، فتشعر من توقع عمر مدى انشغاله بأمور الدعوة في لحظات وجوده ببيته[150].

وهذه لحظات حزن وفزع يعيشها حنظلة عندما يظن أنه انشغل عن أخوته، وهو في بيته فيخرج باكياً فيراه أبو بكر، فيقول له: ما الذي يبكيك يا حنظلة؟ فيقول له: نافق حنظلة. فقال أبو بكر: كيف؟ قال: نكون مع رسول الله نذكر الآخرة فإذا عدنا إلى بيوتنا لاعبنا أولادنا، فقال أبو بكر: والله أنا مثلك، وذهب الاثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكيان ذلك.

ولهذا يجب أن يعايش المسلم أهله بحذر ويجدد إحساسه بزوجته على أنها متاع زائل، وأنه في حياته مع تلك الزوجة في الدنيا مجرد إعارة عندها من زوجته في الآخرة، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أغضبت المرأة زوجها قالت زوجته في الجنة لا تغضبيه قاتلك الله إنما هو إعارة عندك).

ونحن لا ننكر أن للإنسان لهفة طبيعية إلى بيته وأهله، وهذا جابر بن عبد الله يخرج في سبيل الله عريساً ويقاتل ويرجع مع المسلمين منتصراً، فيلاحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم جابراً وهو يسبق الجيش،

فيسأله عن ذلك، فيقول: يا رسول الله! تزوجت، فإسراع جابر في عودته إلى البيت دليل على هذا الإحساس الفطري بحب العودة إلى الأهل والبيت، ولكن هذا الإحساس لم يتمثل عملياً إلا في الإسراع قليلاً في العودة، ولم يكن مانعاً من الخروج في سبيل الله أصلاً.

[150] هذا الجار هو: عتبان بن مالك كما جزم به القسطلاني، والقصة أخرجها البخاري في مواضع من صحيحه منها في (العلم) (1/185).

وحتى لهفة العودة بعد الخروج في سبيل الله كان لها المعالجة النفسية التي تمنع خطرها، وهي سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ركعتين بعد الرجوع من السفر وقبل الدخول في البيت، فهاتان الركعتان ترجعان بالمسلم إلى إحساسه الصحيح تجاه بيته وأهله حتى لا يصل إحساس اللهفة بالإنسان إلى إحساس الرضا بالمسكن الذي تحذر منه الآية.

وكذلك سنة دعاء العودة الذي يربط الإحساس بالرجوع إلى البيت والعبودية لله (آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون). وعند هذا الحد يكون قد تلاشى الإحساس بالمسكن على أنه موضع الاستقرار الذي قد ينازع المسلم في تجرده وكفاحه.

ثم نأتي إلى أهم أسباب حماية البيت وأسباب الحماية من خطر البيت معاً، وهي تحقيق العبودية لله في حياة الزوجين.

حيث يجب أن يملأ معنى العبودية لله طبيعة العلاقة بين الزوج والزوجة، ومن هذا التفسير قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} (التوبة: 71). حيث جاء في تفسيرها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى أيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها، فإن أبي نضحت في وجهه الماء).

وكذلك قوله تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ} (الأحزاب: 35). ورد في تفسيرها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلّيا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات).

ولعلنا نلاحظ في بقية الآية: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} (التوبة: 71) أن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي المقتضي الآخر للولاية بعد العبودية، وهو قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ} (آل عمران: 110).

غير أن هناك أسلوبا نهائياً يحقق التجرد المطلق للمسلم من دنياه، وهو أن يدخل البيت ذاته مجال الكفاح المسلح مباشرة، وتأخذ الأسرة مقعدها للقتال، وهذا ما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته عندما كانوا يأخذون زوجاتهم معهم في غزواتهم المتتالية، فما تكاد تنتهي غزوة حتى تبدأ الأخرى.

ويصور لنا القرآن الكريم مدى قرب البيت من ميدان الكفاح المسلح، فيقول سبحانه وتعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران: 121).

فنرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغدو من أهله فيبوئ المؤمنين مقاعد القتال، فنشعر بمدى قرب البيت والأهل من الميدان ومواقع القتال.

وقبل الختام نبدأ زيارة بيت الدعوة

هناك... في واقع الدعوة وتحت ظلال السيوف. بين بيوت البركة ومنازل الملائكة في سبيل الله... بيت لامرأة من أصحاب اليمين هي الرميصاء امرأة أبي طلحة. وكنيتها " أم سليم).

عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة)[151].

فمن البداية طلبها أبو طلحة ليتزوجها – وهو مشرك – فاشترطت عليه الإسلام ويكون صداقها إسلامه فأسلم وتزوجته[152]. وبذلك يتكون بيت بالإسلام والدعوة.

ويجيء ضيف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن في بيته طعام فسأل مَن يستضيف ضيف رسول الله، فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله! فذهب بالضيف إلى بيته وسأل زوجته أم سليم عن الطعام، فقالت: لا يوجد غير طعام الأولاد أمام الضيف بعد أن جعلتهم ينامون وتصنّعوا أنهم يأكلون دون أن يشعر الضيف حتى أكل طعام الأولاد وشبع. فذهب أبو طلحة إلى صلاة الصبح، فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: (يا أبا طلحة لقد ضحك الله من صنيعكما الليلة)[153].

وأطعمت الرميصاء ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الأولاد وأطعمتنا نحن معني إطعام الضيف، ففي المعنى زاد للتقوى وطعم الإيمان وحلاوة اليقين ورائحة الجنة.

ويبارك الله تعالي كرم الرميصاء فيطعم بطعامها جميع صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ صنعت الرميصاء طعاماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت ابنها أنس بن مالك يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطعام فقال النبي للصحابة: لقد صنع لكم أبو طلحة طعاماً، وذهب جميع الصحابة إلى بيت الرميصاء، فقال أبو طلحة: ماذا نصنع؟ فقالت الرميصاء: رسول الله أعلم بما يفعل، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة أن يدخل عشرة عشرة حتى أكلوا جميعاً وشبعوا، ولم ينقص من طعام الرميصاء شيء[154].

---

[151] البخاري في (العقيقة) (9/587) ومسلم رقم (2144) عن أنس.
[152] متفق عليه: البخاري في (الأطعمة) (9/574) ومسلم رقم (2040) من حديث أنس.
[153] البخاري في المناقب والمغازي (128، 7/361) ومسلم رقم (1811) عن أنس رضي الله عنه.
[154] انفرد به مسلم فرواه في الجهاد رقم (1809) من حديث أنس.

كما يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي في بيتها فلا يجد إلا حصيراً قديماً بلي، فيقول الراوي: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم سليم على حصير قديم قد تغير من القدم، قال ونضحته بشيء من ماء فسجد عليه). رواه أحمد والنسائي وأبو داود.

وتقاتل الرميصاء بنفسها، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: لما كان يوم أُحُد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما ينقلان القرب على متونهما ويفرغانها في أفواه القوم)[155]، وفي غزوة حنين: (عن انس قال: اتخذت أم سليم خنجراً أيام حنين فرآها النبي ذات يوم والخنجر معها فقال: ما هذا يا أم سليم؟ فقالت: اتخذته حتى إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقالت: يا رسول الله! اقتُل من بعْدَنا من الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال لها: أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن)[156].

ولنا أن نعلم عظمة موقف الرميصاء إذا علمنا أن الذي بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر صاحب فتح الباري[157] – في غزوة حنين نحو المائة وبضعة وثلاثين من المهاجرين والبقية من الأنصار، ومن النساء أم سليم وأم حارثة.

ويروي لنا أنس حادثة وفاة الغلام في بيت الرميصاء: (عن أنس قال مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاءاً فأكل وشرب، قال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع، وأصاب منها، قال: يا أبا طلحة! أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب بما كان ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما في غابر ليلتكما، قال: فحملت وأنجبت بعد ذلك عشرة أولاد، كلهم يقرءون القرآن)[158].

ومع العشرة أولاد الذي يقرؤون القرآن كان أنس بن مالك الذي وهبته أم سليم لخدمة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحُلُم،

---

[155] كتاب المغازي ص8 ص: 28.
[156] تقدم قريباً تخريجه.
[157] تقدم تخريجه وبيان ما فيه.
[158] تقدم غير مرة.

وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بالخروج في الغزوات، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجيزه للقتال، ويبكي لحبه للجهاد كان هو الراوي الذي روُيت عنه أكثر أحاديث الجهاد، كما روى ألفين ومائتين وستة وثمانين حديثاً.

ومع العشرة أولاد الذي يقرؤون، كان البراء بن مالك الذي انتصر المسلمون بدعوته في إحدى الغزوات، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الجيش بالسيوف مرفوعة والقوة معدة والأسباب مأخوذ بها وما وبين هذا والنصر إلا دعوة البراء، إذ قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه، ادعُ الله يا براء ينصرنا عليهم).

وكانت تلك بعض معالم البيت.

امرأة من أهل الجنة جعلت الإسلام صداق زواجها، وأطعمت الصحابة من طعامها، وقاتلت في سبيل الله بنفسها، وأضحكت الله بكرمها، وأنجبت عشرة أولاد كلهم يقرؤون القرآن، غير الذي انتصرت الجيوش بدعوته وأنس راوي أحاديث الجهاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وخادمه، كما روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعة عشر حديثاً، وأخرج لها منها في الصحيحين أربعة أحاديث، أحدهما متفق عليه، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بحديث، وروى عنها أنس بن مالك وعبد الله بن عباس وعمر بن عاصم الأنصاري وأبو سلمة وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت.

وقد كانت الصفة الأساسية لتصرفات الرميصاء هي السهولة في تصور الأحداث والممارسة المعيشية والحياة كلها، فعندما أرادت الزواج قالت لابنها: (قم فزوج أمك)، وعندما مات ابنها قالت لزوجها: (هدأت نفسه). وكانت وليمتها التي أعدتها لزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية من التمر. وكان طعامها لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الأولاد. وكان فراش بيتها حصيراً قديماً نضحته بالماء، ليسجد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقد كانت هذه السهولة هي الأثر الاجتماعي الناشئ عن الشعور بمسئولية الدعوة في حياة أصحابها.

وهذا بيت الدعوة الذي نسأل الله أن يكون في واقعنا مجتمعاً كاملاً وحياة دائمة.

ملحق
(شرح حديث أم زرع)

ورد هذا الحديث في البخاري في كتاب النكاح في باب حسن المعاشرة مع الأهل ومسلم والنسائي والترمذي وقد شرح هذا الحديث علماء كثيرون منهم القاضي عِياض وهو أجمعهم وأوسعهم.

وقد لخص الإمام العسقلاني جميع ما ذكروه في (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، وهذا ملخصه:

كانت قرية من قرى اليمن فيها إحدى عشرة امرأة، فقلن: تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب، فتعاهدن وتعاقدن على ذلك.

وقد ذكُرن بأسمائهن في ملخص الإمام العسقلاني.

قالت الأولى: (زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعث) والغث يعني الهزيل يعني صعب المرتقى ومنه وعثاء السفر ومعني العبارة: أن زوجها شديد يصعب الرقى إليه (لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى) معني العبارة: أنه لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلاً، لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وُجد بغير نصب ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة في صعود الجبل لأجل تحصيله.

والمعنى العام: أنها شبهت زوجها بلحم جمل غث يعني قليل الخير وشبهت خلقه بالجبل الوعر أي أن زوجها سيئ الخلق يترفع ويتكبر ويسمو بنفسه فوق موضعها فيجمع البخل وقلة الخير مع سوء الخلق والكبر.

قالت الثانية: (زوجي لا أبث خبره) يعني حديثه الذي لا خير فيه (إني أخاف أن لا أذره) يعني أخاف ألا أترك من خبره شيئاً إذا بدأت الحديث عنه فلا أستطيع من كثرة مساوئه، أو أخاف إن بدأت الحديث عنه أن يصله فيطلقني وأنا أخاف الطلاق. ولكن إن تكلمت سأذكر (عجره وبجره) والعجر أصلاً العروق الظاهرة في الجسم في مواضع مختلفة أما العجر والبجر معاً فنعني العُقد الظاهرة والخفية.

قالت الثالثة: (زوجي العشنق) والعشنق المذموم الطول من غير نفع أو الطويل الذي يملك أمر نفسه ولا تحكم النساء فيه، بل يحكم فيهن بما شاء، فزوجته تهابه، إن تنطق بحضرته تطلق فهي تسكت على مضض (إن أنطق أطلق أو أمسك اعلق).

يعني إن نطقت يطلقها، وإن سكتت لا تُطلق، ولكن تبقى له في وضع المعلقة، وهو وضعها الدائم معه، فهي في كلتا الحالتين لا تنال حقوقها الزوجية منه، سواء طلقت أو بقيت معلقة.

قالت الرابعة: (زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة). تهامة بلاد حارة غالب الزمان، وليس فيها رياح باردة، فإذا كان الليل كان وهج الحر ساكناً، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى النهار، ومن هنا كان وصفها بليل تهامة، وأنه لا حر ولا قر، وأما قولها: (لا مخافة ولا سآمة)، فلأن تهامة جبال يتحصن بها أهلها فلا يخافون.

فوصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال وسلامة الباطن، فكأنها قالت: لا أذى عنده ولا مكروه، وأنا آمنة معه فلا أخاف من شره، ولا ملل بيننا فيسأم أحدنا الآخر، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل، آمنه معه كأمان أهل تهامة بجبالهم العالية.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد.

لأن الفهد يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم.

والأسد وصف بالجرأة والإقدام.

ولا يسأل عما عهد كرماً منه.

وهو في داخل بيته سريع الحركة ونشيط مثل الفهد.

وهو خارج بيته رزين ثقيل مثل الأسد.

قالت السادسة: (زوجي إذا أكل لف وإن شرب اشتف وإن اضطجع التف ولا يولج الكف ليعلم البث).

(إذا أكل لف) أي خلط أصناف الطعام من نهمته وشرهه، ثم لا يبقي منه شيئاً.

(وإذا شرب اشتف) أي يستقصي كل ما يشربه فلا يبقي منه شيء.

(وإن اضطجع التف) فجاء الذم من جهة الانفصال عنها في النوم، وهذا ما يفسره الجزء الآتي:

(ولا يولج الكف ليعلم البث): أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله.

فجمعت في وصفها بين اللؤم والبخل والنهمة والمهانة وسوء العشرة.

قالت السابعة: زوجي غياياء أو عياياء طباقاء كل داء له داء شجك أو فلك أو جمع كلا لك.

ومعني (غياياء) مغط عليه من جهله.

(والعياياء) هو مَن يعييه مباضعة النساء.

(طباقاء) الأحمق.

(كل داء له داء). ومعناها كل عيب تفرق في الناس فهو فيه.

(شجك أو فلك أو جمع كلا لك).

إذا ضربك إما أن يشج الرأس أو يكسر العظم أو يفعل الاثنين معاً.

وبذلك تكون وصفته بالحمق والتناهي في سوء العشرة، وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى فإذا حدثته سبَّها، وإذا مازحته شجها، وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام.

قالت الثامنة: (زوجي المس مس أرنب والريح ريح زرنب) والأرنب هو الحيوان المعروف لين المس ناعم الوبر جداً والزرنب: نبت طيب الريح مثل الزعفران كنتْ بذلك عن حسن خلقه ولين عريكته بأنه طيب العرق لكثرة نظافته واستعماله الطيب تظرفاً ويحتمل أن تكون قصدها بذلك طيب حديثه أو طيب الثناء عليه لجميل عشرته لها وصبره عليها بالشجاعة، وهو كما قيل ويغلبن الكرام ويغلبن اللئام، قال عياض: هذا من التشبيه بغير أداة، وفيه حسن المناسبة والموازنة والتسجيع وأما قولها وأنا أغلبه لظن أنه جبان ضعيف، فلما قالت والناس يغلب دل على أن غلبها إياه إنما هو من كرم سجاياه، فتمت بهذه الكلمة المبالغة في حسن أوصافه.

قالت التاسعة: (زوجي رفيع العماد، طويل النجاد عظيم الرماد، قريب البيت من الناد).

وصفته بطول البيت وعلوه، فإن بيوت الأشراف كذلك يعلونها، ويضربونها في المواضع المرتفعة ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً، وقيل كنتً بذلك عن شرفه ورفعة قدره.

(طويل النجاد) هو حمالة السيف، تريد أنه طويل القامة يحتاج إلى طول نجادة وفي ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته.

وقولها (عظيم الرماد) تعني أن نار قراه للأضياف لا تُطفأ لتهتدي الضيفان إليها.

ومحصل كلامهما أنها وصفته بالسيادة والكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة.

قالت العاشرة: (زوجي مالك وما مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك).

المبارك: موضع نزول الإبل.

المسارح: موضع رعي الإبل.

المزهر: الذي يوقد النار فيزهرها للضيف أو آلة اللهو كالدف الذي يضرب ترحيباً وبالضيف.

مالك وما مالك؟ الاستفهام للتعظيم.

مالك خير من ذلك. زيادة في التعظيم.

له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح: لاستعداده للضيفان بها لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلاً ويترك سائرهن بفنائه، فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه به من لحومها وألبانها.

(إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك) يعني إذا سمعت الإبل صوت المزهر أيقن أن ضيفاً قد جاء وأنهن هوالك بسبب ذلك.

ومحصل كلامها أن زوجها ذو مال وكرم.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع: فما أبو زرع؟

(أناس من حلي أذني): حرك بحلي ثقيلة أي ملأ أذنيها بما جرت عادة النساء في التحلي من فرط وشنف من ذهب ولؤلؤ.

(وملأ من شحم عضدي): أي سمنت عنده وامتلأت.

(وبجحني فبجحت إلي نفسي) فرحني وعظمني ففرحت وعظمت إلي نفسي.

(وجدني في أهل صهيل وأطيط، ودانس ومنق: أي جعلني في أهل ثراء وخيل وإبل وأهل زرع ودجاج.

(فعنده أقول فلا أقبح): لكثرة إكرامه لها وتدللها عليه.

وأرقد فأتصبح: وهو نوم الصبحة إشارة غلي ابن لها مَن يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها.

(وأشرب فأتقمح): أي حتى لا أحب الشرب من كثرة الشيء الذي يشرب.

(أم أبي زرع) والدة زوجها.

(عكومها رداح): أحمالها التي تجمع فيها الأمتعة ممتلئة ثقيلة.

(وبيتها فساح): أي فسيح.

فوصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث واسعة البيت كثيرة المال.

(ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟): مضجعه كسل شطبه: ما شطب من الجريد وهو سعفه فيشق منه قضبان رقاق تنسج منه الخضر.

(ويشبعه ذراع الجفرة): الجفرة ولد الماعز ابن أربعة أشهر فوصفته يهيف القد ليس ببطين، قليل الأكل والشرب أي أن معيشته سهل عليها.

(بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع؟).

(طوع أبيها وطوع أمها): بارة بهما.

(وملء كسائها): للدلالة على كمال الشخصية ونعمة الجسم.

(وغيظ جارتها): أي أن جارتها تغير منها لجمالها.

(جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟).

(لا تبث): لا تظهر حديثنا تبثيثاً.

(ولا تنفث ميرتنا تنفيثاً): لا تسرع فيه بالخيانة ولا تنهبه بالسرقة أي الطعام.

(ولا تملأ بيتنا تعشيشاً): مُصلحة للبيت مهتمة بنظافته ولا تكتفي بضم كُناسته وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

(خرج ابو زرع والأوطاب تمخض): الأوطاب جمع وطب وهو وعاء اللبن وتمخض أي يضع فيها وأرادت أن الوقت الذي خرج فيه كان زمن الخصب وطيب الربيع توطئة للباعث على رؤية أبي زرع للمرأة التي رآها عليها.

(فلقي امرأة ولدان لها كالفهدين).

(يلعبان من تحت خصرها برمانتين): أي من مخض اللبن تعبت فاستلقت تستريح فرآها أبو زرع على ذلك. ورجح القاضي عياض تأويل الرومانتين بنهديها فطلقني ونكحها.

(فنكحت بعده رجلاً سرياً): أي من سُراة الناس وهم كبراؤهم فيس حسن الصورة والهيئة.

(ركب شرياً): أي ركب فرساً عربياً أصيلاً، يستشري في سيره أي يمضي لا خور...

(وأخذ خطّياً): الرمح نسبة إلى مصدره وهو مكان بالبحرين اسمه (الخط) تجلب منه أفضل الرماح.

(وأراح عليّ نعماً ثرياً): أي غزا فغنم وأتي بالنعم الكثيرة.

(وأعطاني من كل رائحة زوجاً): أي أعطاني عن كل شيء يذبح زوجاً أو من كل شيء يرعى زوجاً.

وقال: (كلي أم زرع وميري أهلك): والحاصل أنها وصفته بالسؤدد في حياته والشجاعة والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدي منه ما شاءت لأهلها مبالغة في إكرامها.

(ومع ذلك قالت)، فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع: فكانت أحواله محتقرة بالنسبة لأبي زرع، وكان سبب ذلك أن أبا زرع كان أول أزواجها فسكنت محبته في قلبها.

(تمخض): أي يضع منها الزبد.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات